روايات عبير



آن هامبسون

قريباً يا ملاكي

١٣٣

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية
BELOVED VAGABOND

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - غابة الفجر

كانت السيارة تسير على مهل في الطريق الساحلي، تجلس خلف مقودها فتاة جميلة تتأمل روعة المشهد الطبيعي. منحدرات خضراء تنغمس أطرافها في رمال الخليج الصغير الذهبية وتنتصب قبالتها أشجار عالية مورقة.

كانت لين سلفدن تنوي قضاء العطلة في ايرلندا الجنوبية برفقة صديقة لها، لكن هذه الأخيرة اعتذرت عن المجيء فقررت لين المضي في رحلتها وحدها. انتقلت من انكلترا إلى ايرلندا بحراً وبذلك تمكنت من شحن سيارتها على الباخرة نفسها.

أمضت الفتاة إلى الآن عشرة أيام رائعة تتنقل في أرجاء ايرلندا

الا عند رجوعها في المساء الى الفندق لتخلد للنوم. وبعد ان امضت لين يومها في مدينة مونبغال استعدت للعودة الى الفندق الواقع في اطراف المدينة لتتوجه في الصباح الباكر جنوباً نحو مانتيلوي حيث ستستقل الباخرة بعد ايام عائدة الى انكلترا.

اوقفت السيارة الى جانب الطريق واخرجت من حقيبتها خريطة المنطقة. عيناها تحدقان في الورقة، في حين ان فكرها شارد في امور اخرى وخاصة في عرض الزواج الذي تلقته قبل اسبوعين من زميلها في العمل توماس. شاب لطيف ومهذب لكنه لا يتمتع بأية جاذبية لا بل هو، كما وصفته احدى زميلاتها، بليد ومثير للضجر. وعدته لين بالتفكير جدياً في الأمر لأنها بدأت تشعر بالملل من العيش وحيدة في شقتها الصغيرة التي تتقاسم حمامها مع شاغلي الشقة المجاورة! فلا بأس بفكرة الاستقرار في منزل كبير مع رجل طيب ورفيق لبناء عائلة صالحة. الى جانب ذلك، هناك سبب آخر يجعل لين تأخذ في الاعتبار عرض الزواج، وهو شعورها بالأسف نحو توماس الذي فجع بخيانة زوجته له واضطر للجوء الى الطلاق. وجدت الفتاة في معاناته قواسم مشتركة مع ما تعرضت له حياتها العائلية. فقد نعمت لين بطفولة سعيدة بين والدين محبين وفي منزل وافر الأمان، لكن والديها انفصلا عن بعضهما وهي لم تتجاوز بعد السبعة عشر ربيعاً بعد ان وجدا ان طريق الواحد يختلف عن طريق الآخر. وخلال ثلاثة اعوام تزوجت الوالدة من رجل اميركي وهاجرت معه الى اميركا، كما ان والدها تزوج من سيدة اقنعته بالهجرة الى استراليا. وهكذا اصبحت لين وحيدة وهي في العشرين، تعيش دون عائلة ولا تتكل الا على الله ونفسها. اما الآن، وبعد اربع سنوات من الوحدة القاتلة، فقد قررت ان تجد الرجل الذي ينتشلها من عذابها ويقاسمها حياة هنيئة.

ايكون هذا الرجل توماس؟ سؤال لم تجد له بعد جواباً شافياً.

تنهدت وضغطت على دواسة البنزين وهي تقود السيارة في طريق فرعي ضيق محاط بأشجار عالية. بعد ان توغلت بضعة كيلومترات

وصلت الى غابة كثيفة تقع في وسطها بحيرة جميلة يقوم قربها مخيم للغجر. وجود جماعات الغجر في ايرلندا امر مألوف اكثر من وجودهم في انكلترا. غريب امر هؤلاء القوم يتنقلون من مكان الى آخر، لا يحبون الاستقرار كباقي الناس، يبحثون عما لا يجدون فيستمرون في التجوال. ولولا النفايات التي يخلفونها وراءهم لكانوا يزيدون من روعة المناطق الريفية لتناغم طريقة حياتهم ولباسهم والوانهم مع جوها...

فجأة، اذ تجاوزت السيارة اولى عربات الغجر، اصدر المحرك صوتاً قوياً ثم توقف. ترجلت لين من السيارة عابسة وتحلق حولها عدد من الأطفال الفضوليين. ثم تقدمت منها غجريتان فيما هي منهمكة بالنظر الى المحرك تحاول عبثاً معرفة سبب العطل لأنها ليست خبيرة في شؤون الميكانيك. وبرز من بين الجميع شاب اسمر اللون عاري الساعدين. رفعت لين عينيها لترى شاباً طويلاً مفتول العضلات، اسود العينين، اجعد الشعر. نظراته الثاقبة ارعبتها فبلعت ريقها من الخوف.

قالت له اخيراً:

ـ تعطل محرك سيارتي.

ـ هل نفد منها الوقود؟

اومأت لين بالنفي واجابت:

ـ الوقود فيها اكثر من كاف.

وجدت الفتاة نفسها تحدق لا شعورياً في هذا الغجري، تدرس ملامحه القاسية بانتباه. لاحظت تعالياً وغطرسة في هذه الملامح تجعلانه مختلفاً عن بقية قومه. فالغجر عامة اناس بسطاء متواضعون، علمهم الفقر ان الخضوع هو الوسيلة الوحيدة لكسب لقمة العيش.

قال الغجري الاسمر:

ـ بما ان الوقود متوافر لا اعلم سبب الداء. نحن نستعمل الجياد لا السيارات، لذلك خبرتي في المحركات محدودة جداً. كل ما يمكنني

فعله هو ارسال احد الى المدينة ليحضر ميكانيكياً.

ـ هذا لطف كبير منك، لكني سأتدبر الأمر وحدي فلا داع للازعاج.

هز الرجل كتفيه علامة عدم الاكتراث، لكن لين تدرك انه كاذب من خلال نظراته الشغوفة والفاحصة. ولأنها لمحت شاباً يتوجه على حصانه نحو المدينة ليحضر ذلك الميكانيكي.

شعرت لين بالحرج وهي واقفة بين هؤلاء الغجر. فبدأت تتمشى حتى ابتعدت عن المخيم في طريق موحش لا اثر فيه لانسان. تحيط بجانبيه خضرة عذراء تبدو من خلالها مياه البحيرة مرآة تنعكس على صفحتها بقايا اشعة الشمس الذهبية.

وبينما هي تتأمل شاعرية المكان وسحر جوه الغامض سمعت وقع خطى تتقدم منها على مهل فارتعدت. علمت انه الغجري الأسمر. تراءت لها اشياء كثيرة مرعبة اذ رأته يقترب منها بكل ثقة. وخانتها شجاعتها حتى كادت تصاب بالاغماء.

تحدث الشاب بنبرة آمرة:

ـ انت انكليزية، أليس كذلك؟ ظننت في البدء انك اميركية.

توقف عن الكلام واقترب من الفتاة. عضلاته القوية يبرزها قميصه الأسود الضيق وغجريته يدل عليها الشلح الأحمر الوسيع الملفوف حول عنقه. لو اراد فنان رسم منشوره لوجد فيه النموذج الأمثل. ارتعشت لين تراودها فكرة الفرار ولكن الغجري لم يدع لها الفرصة لتجد منفذاً. تقدم منها بخفة واطبق على ذراعها دافعاً اياها الى مكان كثيف بالاشجار. خلال ثوان صارت بين ذراعيه القويتين.

صرخت بأعلى صوتها بعد ان افلحت في التحرر من قبضته:

ـ ايها الوحش!

وغرقت لين في رعب بكلمات جارحة خرجت من فمها بطريقة

عفوية حتى لم تعد تدري ما تقول.

لم يأبه الرجل لكلماتها بل طوقها بذراعيه من جديد ضاحكاً وكأن مقاومتها تزيد لعبته اثارة. وبينما هو يهم بطرحها ارضاً داس احد على غصن يابس فسمع صوت انكساره عالياً. التفت الرجل وهو يزمجر غضباً ليواجه فتاة غجرية جميلة يتطاير الشرر من عينيها.

صاحت الغجرية في وجهه:

ـ ألم تكتف من افعالك القبيحة بعد؟ دع الفتاة وشأنها ايها الوقح!

ذهلت لين لاطاعة الرجل الشرير اوامر الغجرية من دون نقاش. وما كادت تحرر يدها المكبلة بالخوف حتى اطلقت ساقيها للريح ولم تتوقف، بعد ان تجاوزت سيارتها المعطلة، الا عندما بلغت الطريق العام.

بعد يومين من الحادثة جلست لين تفكر في كيفية افلاتها من قبضة الغجري الأسمر. ولحسن حظها وجدت باصاً اقلها الى الفندق في المدينة، ومن هناك اتصلت هاتفياً بمرآب للسيارات فتكفل الميكانيكي باصلاح السيارة وجلبها في اليوم التالي بعد ان تبين ان العطل كان بسيطاً للغاية.

سارعت لين بعد ذلك الى مغادرة المنطقة. وساهم انتقالها بين الطرقات الجميلة على نسيان الحادثة الأليمة. فاستعادت روحها المرحة ورغبتها في اكتشاف المزيد من ايرلندا.

وصلت الى منطقة تدعى لاف كوريب حيث وجدت المشاهد رائعة تحبس الانفاس. الجبال، المراعي الواسعة، البحيرات، الغابات... كلها خلابة تسحر الألباب، تمتع العين والنفس وترحب بانسان المدينة المتعب لينفث في رحابها سموم همومه واحزانه.

الشعور الوحيد الذي انتاب لين وهي تقود السيارة في هذه الارجاء هو الأمان التام. وصلت الى واد اخضر لتبحث عن مكان تمضي فيه ليلتها. ووقفت في اتجاه المكان الملائم، مزرعة صغيرة يستقبل اصحابها النزلاء في جناح خاص مقابل مبلغ قليل من المال.

أوصلتها المرأة صاحبة المزرعة الى غرفتها البسيطة النظيفة. واطلت لين من النافذة لتشاهد المنظر الجميل والجبال تكسوها الغابات الكثيفة. ثم لاحظت مدخنة بعيدة في وسط جبل اخضر.

سألت لين المرأة وهي تشير الى المدخنة:

- اهناك بيت في الجبل؟ اظن اني رأيت مدخنة.
- نعم، هذا قصر السيد دوفي.

لاحظت الفتاة تغيراً في نبرة المرأة التي تابعت تقول:

- السيد دوفي هو مالك كل هذه الأراضي الواسعة وقد ورثها عن والده الذي كان الحاكم الاقطاعي للمنطقة. بناء ضخم تحيط به حدائق رائعة.
- هل يسمح للعامة بزيارة الحدائق؟
- نعم، الأبواب تفتح للزوار يومي الثلاثاء والسبت في فصل الصيف.
- اهوى التجول في حدائق القصور الضخمة.

وتابعت بعد ان تخيلت نفسها بين احضان حدائق قصر دوفي الغناء:

- اوه لو سمحت يا سيدتي ان احجز هذه الغرفة ليومين لأني اريد زيارة هذه الحدائق.
- بالطبع يا آنسة سيكون بامكانك حجزها المدة التي تريدين، فهناك اشياء كثيرة يمكنك القيام بها في هذه المنطقة. باستطاعتك مثلاً، اذا كنت تحبين ركوب الخيل، استئجار جواد من مدرسة الفروسية والتوجه الى الغابات. اعجبت لين بهذه الفكرة فهي لا تزال تحب الفروسية التي تعلمتها ايام الطفولة الهنية. شكرت المرأة وتوجهت فور خروجها الى الحمام لتغتسل، بالمياه الباردة من الحر الشديد.

في السادسة نزلت الى غرفة الطعام لتتناول العشاء. كان في الغرفة عروسان شابان فانضمت الى طاولتهما وسرعان ما بدأ تبادل

الحديث.

سألت لين الرجل المدعو بوب:

- انحن النزلاء الوحيدون هنا؟
- كلا هناك اربعة آخرون ذهبوا لتناول العشاء في فندق قريب.
- متى جئتما الى هذا المكان؟

هذه المرة تكلفت العروس ماري بالاجابة:

- منذ يومين فقط، لكن المنطقة جميلة وتحتاج اكتشافها كلها الى شهر على الاقل.

قالت لين:

- هذا صحيح، قيل لي ان حدائق قصر دوفي تستحق الزيارة.

سارعت المرأة الشابة الى القول:

- جمالها لا يوصف يا آنسة لين. لقد زرناها يوم الثلاثاء الماضي ودهشنا لروعتها.
- وفي اي وقت تفتح الأبواب؟

اجاب بوب:

- تفتح من الثانية حتى الخامسة بعد الظهر.

انطلقت لين ظهر السبت صوب حدائق قصر دوفي. وبعد ان سلكت بسيارتها طريقاً منحدراً وصلت الى سفح التلة التي يقوم عليها القصر وبدأت بالصعود نحوه الى ان بلغت سوراً كبيراً في وسطه بوابة مفتوحة يقف بجانبها حارس يرتدي ثياباً انيقة.

اضطرت الفتاة للانتظار في الخارج لانها وصلت قبل الموعد المعين ببضع دقائق. في تمام الثانية دخلت الى موقف مخصص لسيارات الزوار بعد ان دفعت مبلغاً صغيراً يذهب الى الأعمال الخيرية، فصاحب القصر لا يتقاضى شيئاً من الزوار.

اخيراً وجدت لين نفسها تتجول في هذه الجنة الساحرة. اينما نظرت وجدت جمالاً وبهاء. ممرات تظللها اشجار سخية. برك ماء صغيرة تغطيها الزنابق جداول تتدحرج بين الصخور تعلوها جسور

حشية صغيرة مكسوة بالنبات المتسلق يتدلى فوق المياه المعطش الى خضاره. الأثيل بديعة ويسط نوافير مياه وتشكيلات من اجمل الزهور وازهاها. توقفت لين مرارا لتقرأ اسماء الشجيرات والأزهار النادرة، فتحت كل مجموعة وضعت لوحة صغيرة فيها شروحات موجزة عن النوع. كما قرأت على احدى اللوحات ان شرفات الجهة الجنوبية من القصر صممتها موريل زوجة الكونت دوفي حاكم المنطقة في القرن التاسع عشر.

وقفت لين مطولاً تتأمل جمال القصر تحفة وروعة فن العمارة العائد الى عصر النهضة. كما لاحظت ان البناء جدد في القرن الثامن عشر لأن هناك زوائد كثيرة مصممة حسب اسلوب العمارة السائد في تلك الأيام.

وصلت لين خلال تجوالها الى حديقة مليئة بأشجار الزيزفون وشجيرات اخرى اجنبية مستوردة من القارة الأميركية. حديقة اقل ما يقال فيها انها فاتنة جعلت الفتاة تنسى كل شيء، وتعتبر ان العالم تقلص ليصبح هذا المكان الخلاب الذي لا مثيل له. فلم فيه حزن او هم. لم تتمكن من كتم شعور بالحسد تجاه مالكي القصر. وتمنت لو تكون مكانهم. تقدمت بنظرها من خلال قوس حديقتي الى قسم قديم من القصر ترك على حاله من دون ترميم. جدران متشققة مغطاة بنبات اللبلاب المتسلق كسحابة خضراء مصنوعة بيد امهر الفنانين...

حان وقت العودة الى الفندق وتمنت لين رؤية مالك القصر قبل ذهابها. لا بد انه رجل متزوج يعيش في سعادة تامة مع عائلته. ولكن كيف يتمكن سكان القصر من حبس انفسهم في الداخل عندما تفتح الأبواب للزوار؟

فيما هي متوجهة الى البوابة الرئيسية لاحظت لين مجموعة من الزوار متحلقين حول نافذة من نوافذ القصر. تقدمت منهم يدفعها فضول الاكتشاف فسمعت الحوار الدائر بينهم.

قالت سيدة متوسطة العمر:

ـ هذه اللوحة تمثل والدته.

علقت سيدة اخرى:

ـ كانت رائعة الجمال.

ـ من المؤسف انها اقدمت على هذا العمل!

ـ يقال ان عائلتها رفعت علماً اسود على شرفات القصر بعد الحادث.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ معناه انها اعتبرت ميتة بالنسبة لعائلتها بعد الذي سببته لهم من عار.

ـ في اي حال هي ماتت بعد ذلك بوقت قصير، اليس كذلك؟

ـ ماتت وهي تضع طفلها.

ـ وهل تعهد اهلها الطفل؟

اجاب احد المتفرجين بالانكليزية تلونها اللهجة الايرلندية الموسيقية:

ـ البعض يؤكد ذلك ولكني في الحقيقة لا اعلم مدى صحة الخبر.

ـ لكنه اصبح مالك القصر وسيد الأراضي الآن برغم كل ما حدث.

ـ السيد دوفي وجد هذه اللوحة وامر بوضعها هنا ليعيد الاعتبار الى والدته المشوهة.

ـ يا لها من قصة مثيرة! كم يبلغ دوفي من العمر؟

ـ اعتقد انه اصبح في الثلاثين.

ـ هل هو متزوج؟

ـ لا، سرت الشائعات كثيرة عن علاقة تربطه بممثلة سينمائية كبيرة. لكنها اخبار ملفقة لا تمت الى الحقيقة بصلة. يقال عنه انه يؤمن بالحب من اول نظرة، وعندما يجد ضالته المنشودة سيتزوج فوراً.

- التي لم تستطع التعرف اليه لأنه، كما سمعت، شاب باهر الجمال.
- ما يميزه عن غيره من الرجال هو قصته المحزنة.
- ما هي القصة التي حدثت مع امه؟ انا لا اعرفها كاملة.
- تعرفين يا تانسي ان المرأة هربت مع . . . .

لم تسمع لين من القصة اكثر من ذلك. لأن المجموعة ابتعدت عنها باتجاه قسم آخر من الحديقة. نظرت من النافذة الى داخل القصر حيث علقت اللوحة الفنية فرأت رسم امرأة رائعة الجمال ترتدي فستاناً من الحرير الخالص، شعرها الذهبي ينسدل بسخاء على كتفيها الناعمتين . . . وعلى بساطته، لا يخفي وجهها نظرات ارستقراطية تشع من العينين الزرقاوين. شفتاها الورديتان ترسمان ابتسامة السعادة والبراءة. من المحزن انها ماتت عند الوضع. فلماذا تحدث مثل هذه الاشياء المأساوية للناس؟

خرجت لين من الحدائق وهي تفكر بهذه القصة التي لم تتمكن من الاطلاع على كامل فصولها. شعرت بفضول كبير لمعرفة الحقيقة والتعرف الى صاحب القصر الذي افقد الوجة والدته لتفقد شرفها الضائع.

في الصباح التالي حزمت لين حقائبها ووضعتها في السيارة استعداداً للرحيل. بعد ان سددت الفاتورة ووعدت بالعودة الى المزرعة في رحلتها القادمة الى ايرلندا، توجهت الى مدرسة الفروسية حيث تركت السيارة في موقف خاص وترجلت لتستأجر حصاناً. قررت ان تقوم بنزهة صغيرة على الخيل قبل ذهابها الى منطقة جديدة. ووقع اختيارها على فرس قوية فتية.

- هل هي هادئة؟

اجابت الفتاة المسؤولة عن الاسطبل:

- فويلا احسن فرس عندنا. وانا اكيدة من انك ستطلبينها كثيراً عندما تنتهين من جولتك.

حدقت الفتاة في لين جيداً وتأملت الوجه الرقيق والشعر الأسود الطويل المعقود بشريط ابيض. كما اعجبت بالقامة الرشيقة وخصوصاً بالساقين الطويلتين والخصر الضامر. لا شك في ان لين فتاة جميلة تجذب الرجال وتدير رؤوسهم . . .

بعد قليل كانت الفتاة الانكليزية تمتطي جوادها في الغابة التي ارشدتها اليها فتاة الاسطبل حيث يمكنها التجول بحرية وحيث لا خطر بأن تتيه لأن اللافتات منتشرة في الغابة خصيصاً لارشاد المتنزهين.

كانت اشعة الشمس الساطعة تنفذ من بين الأوراق الكثيفة بحياء، مضفية على الجو الداخلي الرائقة من السحر وومضة من الغموض.

- يا الهي! كأنني في الجنة!

ضحكت لين مسرورة لانها تتمكن من الكلام والتفكير عالياً بحرية مطلقة في هذا المكان. كأن العالم اصبح ملكها لا ينازعها عليه احد.

- حسناً يا فرسي فويلا، لنرتح قليلاً هنا.

ربطت الفرس الى شجرة ووقفت تتأملها تلتهم العشب الطري بنهم.

اجفلت لين عندما سمعت صوتاً غريباً. واخذت تحدق حولها لترى مصدر الجلبة. وشعرت بأن احداً يراقبها في هذه الغابة الموحشة. تلفتت فلم تسمع الا خفقة ورقة صفراء يحملها النسيم.

فجأة سمعت صهيل حصان فاقتربت من فرسها وحلت الحبل بيدين مرتجفتين. وقبل ان تستطيع امتطاء الفرس والابتعاد اقترب منها حصان يمتطيه . . . الغجري الاسمر.

تجمد الدم في عروق لين لما رأت الرجل امامها . . . كيف استطاع الوصول الى هنا من غيره بهذه السرعة؟ لا يعقل ان يكون جاء على حصانه لأن المسافة بعيدة الى حد تجعل ذلك مستحيلاً في وقت

قصير... لا بد انه استعمل وسيلة اخرى. ثم، من أين له بهذا الحصان الأصيل الذي لا يمكن ان يملكه غجري فقير؟

رفعت عينيها الى وجهه ففوجئت لأنها لاحظت امارات لم تلحظها فيه عندما حاول الاعتداء عليها بعد تعطل سيارتها قرب المخيم. رأت الى جانب وسامته مسحة ارستقراطية نبيلة وشيئاً من الثقة والاستعلاء. يده الممسكة باللجام بدت انعم، تدل على انه لم يقم بعمل يدوي في حياته. حتى ثيابه تبدلت، لم يتخل عن قميصه الاسود لكن المشلح الأحمر الوسخ اختفى ليحل مكانه مشلح آخر نظيف. السروال الممزق الذي كان يرتديه في المرة السابقة تغير ليصبح سروالاً انيقاً... لا شك انه سرق الحصان والثياب، ولكن كيف تبدلت يداه من يدي متشرد الى يدي ارستقراطي نبيل؟

وقف الغجري يحدق فيها باستغراب كأنه فوجئ، لوجودها هنا بعد الحادثة.

حطم جدار الصمت اخيراً بقوله:

- صباح الخير.

اخذت لين ترتد نحو فرس الغريب وجسمها الرقيق يرتعش خوفاً وغضباً. نظرت صوب الممر القريب الذي يوصلها الى مدرسة الفروسية وبخفة لم تعهدها في نفسها من قبل قفزت الى الحصان والسوط في يدها. انطلقت بسرعة وكي تعاقب الغجري على فعلته وتؤخره عن اللحاق بها ضربته بالسوط على وجهه. وضع الرجل يده على خده الدامي وفي عينيه ذهول كبير.

- تستحق اكثر من ذلك ايها الغجري المتشرد! كيف تجرؤ على التحدث الي؟ عد الى قومك ولا تتحرش بالناس المتمدنين!

قالت لين كلماتها هذه وهي منطلقة على فرسها تحثها بضربات خفيفة من قدميها على الاسراع في العدو. اخذت تخترق الغابة بسرعة عمياء وخوفها يتعاظم مع اقتراب صوت حوافر جواده منها. اذا تمكن من اللحاق بها سيقتلها ويرميها في الغابة! ازداد هلعها فقد

الفكرة ولم تعد تدري ما تفعل لتخرج من الورطة السيئة. اخذ الحصان يقترب منها اكثر فاكثر وصاح فيها الرجل:

- توقفي!

استمرت لين في العدو والعرق يتصبب من جبينها. لكنها ضلت الطريق بسبب ذعرها الشديد ولم تجد مفر الخروج من الغابة. فصارت تصرخ بأعلى صوتها:

- النجدة! النجدة!

دب التعب في الفرس فخفت سرعتها في حين ان حصان الغجري الجبار ما انفك يدنو منها.

- توقفي والا اوقعتك عن الفرس!

تجاهلت الفتاة اوامره باحثة دون جدوى عن وسيلة للافلات.

- دعني وشأني! ارحل عني. سأشكوك الى رجال الشرطة...

توسلات وتهديدات لن تجدي نفعاً مع هذا الرجل الشرير.

اخيراً صار الغجري بمحاذاتها فبذلت لين المستحيل للصمود على فرسها المتعبة. مد الرجل يده وخطف من يدها اللجام وشد حتى اجبر الفرس على التوقف. ثم نزل عن حصانه وانزل لين عن فرسها. شعرت الفتاة انها سجينة نظراته الغاضبة ووقفت عاجزة عن الحراك امام سطوة قامته العملاقة.

رفع الغجري يده الى خده الدامي يتحسس الجرح العميق الذي سببته ضربة السوط.

سألها:

- هل الفرس لك؟

فوجئت لين عندما وجدت نفسها تجيب بهدوء:

- لا، استأجرتها من مدرسة الفروسية.

هز الرجل رأسه وكأنه يعرف المدرسة المذكورة والتفاصيل الاخرى. ثم اخذ يحدق في الفتاة لثوان مرت ثقيلة كأنها الدهر قبل ان يقول:

- لا خوف على الفرس لأنها تعرف طريق العودة الى الاسطبل.

وضرب خوسيلا ضربتين خفيفتين على خاصرتها فعدت بالعدو حتى اختفت عن نظر لين بعد قليل.

وجه الغجري اليها سؤالاً يعرف الجواب عليه.

- من اين انت؟

- انا انكليزية وجئت الى ايرلندا لأمضي اجازتي السنوية. . . انزل في مزرعة قريبة من هنا.

هز الرجل رأسه مرة جديدة كأنه يعرف المزرعة كذلك. لا بد انه خبير في المنطقة لأن الغجر يجوبون البلاد طولاً وعرضاً فيتعرفون الى معظمها.

- قلت انك في اجازة، فهل يعني هذا انك لوحدك؟

- كلا، انا اجوب البلاد بسيارتي التي تركتها في موقف قريب من الاسطبل.

واصل الرجل طرح الأسئلة وواصلت لين الاجابة من دون ان [illegible] في [illegible] معلومات يجب ألا تطلعه عليها. [illegible] الا [illegible] طويلاً.

- انت وحدك هنا.

وعندما سألها لماذا ضربته اجابت لين وفي صوتها نبرة الازدراء:

- لأنك وحشك حثالة المجتمع ورعاع القوم!

سرعان ما ندمت لتهورها وطيشها اذ رأت في عيني الرجل عاصفة من الغضب ونية على ارتكاب عمل شرير. اقترب منها وزمجر:

- رعاع القوم؟ ستدفعين ثمن كلماتك غالياً.

وبسرعة حملها ورمى بها على ظهر الحصان، ثم قفز خلفها وانطلق مسرعاً نحو عمق الغابة.

تساءلت لين عما ينوي الغجري فعله بها ولكنها لم تفلح في تصور مصيرها الذي لن يكون مشرقاً بالطبع، يعزز ذلك غضب قريب من الجنون يسيطر على خاطفها.

ازداد الحصان توغلاً في الغابة ولين تكاد تصاب بالاغماء، والرجل ملتصق بها تحس بنفسه يلفح عنقها وهو يقود الجواد بسرعة كبيرة. اخذت ترتعد كورقة خريفية وهي تسأل نفسها عما فعلته لتستحق هذه النهاية السوداء. اخيراً قرر الرجل التنازل عن صمته فأعلن:

- نحن ذاهبان الى المخيم وسنصله قريباً.

- المخيم . . . اي مخيم هذا؟

قهقه الغجري عالياً يتلذذ بخوفها واجاب:

- ألا تعلمين ان الغجر يعيشون في مخيمات؟

- ستندم ايها الحقير على فعلتك لأن رجال الشرطة سوف يزجون بك في السجن!

قالت لين ذلك وهي تعلم في قرارة نفسها ان كلامها لا يرهب الرجل فالغجر معروفون في الخروج على القانون. ولا يعترفون بالسلطة. القانون الوحيد الذي يحترمونه هو ان الغاية تبرر الوسيلة وان مصلحة القبيلة يجب ان تكون [illegible] النظر عن مصالح الغير. [illegible] على [illegible] ذلك [illegible] في [illegible] الغجري.

- تكونين احمق اذا اعتقدت ان بامكانك الافلات من قبضة العدالة. الاختطاف جريمة يعاقب عليها بشدة!

لم يعلق الرجل على كلامها بشيء، وظلا صامتين حتى وصلا الى المخيم حيث انتشرت عربات كثيرة. نظرت لين الى الوجوه السمراء فلم تتعرف الى احد من الذين رأتهم عندما تعطلت سيارتها. كما لم تجد الفتاة التي انقذتها يومها من قبضة خاطفها لعلها تجيد الكرة الآن.

تعالت صيحات الترحيب بالغجري:

- اهلاً بك يا رادولف!

- ما هذه الغيبة الطويلة؟

- اخيراً عدت الينا

نشأ لدى لين انطباع بأن الغجري لا ينتمي الى مخيم معين، خصوصاً وانها تأكدت من ان هذا المكان ليس نفس المكان الذي شاهدته في السابق. فهي انتقلت بسيارتها من منطقة الى اخرى بعيدة.

تقدم من الغجري رادولف رجل كهل وقال:

- رادولف، ليس من عادتك...

اسكته رادولف باشارة من يده، ولكن الكهل تابع:

- ماذا حدث لوجهك؟ الدماء تسيل منه بغزارة!

عندما رأت لين الجميع يتحلقون حول رادولف وعلامات التعجب بادية على وجوههم. سمعت بعض الكلمات الانكليزية لكن معظم الكلام كان باللغة الغجرية التي تجهلها تماماً. اوضح رادولف الأمر لقومه بلغتهم ونظراته المليئة بالحقد تصب نارها على الفتاة المصابة بذهول مطلق.

امسك الغجري بخصرها وانزلها عن الحصان فتعالت ضحكات من حولها وكأن القوم يستعدون لمرح آت ولاثارة توفرها لهم ضحية جديدة يتسلون بها...

زادت الدماء المتجمدة على خد رادولف ورقبته من رهبة شكله وجعلته يبدو شبيهاً اكثر واكثر. أيمكن ان تتوقع لين رحمة من انسان كهذا لا يهتم الا بارضاء غرائزه، لا يعرف ما هي المثل والمبادئ، التي تؤمن بها المجتمعات المتحضرة؟ حاولت الفتاة الا تفكر بما ينتظرها، لكن الرؤى السوداء كانت تحلق فوقها كغمامة داكنة. وصورة رادولف القاسي يعبث بجمالها البريء، ونظراتها الطاهرة راسية في مخيلتها. تمنت لو انها تموت؟ فالموت ارحم من الذل القابع وراء الساعات المقبلة... تمنت لو ان يدي رادولف الجبارتين تلتفان حول عنقها الغض وتعصران منه آخر قطرة حياة...

انصرف رادولف الى حديث طويل مع الرجل الكهل. سمعتهما لين يتلفظان ببعض الأسماء: اولاف، بوريل وغيرهما. وفهمت ان

الرجل الكهل هو اولاف والد رادولف يتحدثان عن بوريل، ولكنها لا تعلم ما اذا كان بوريل اسماً لامرأة او لرجل والا يكن طابع الرجولة غالباً عليه. حدقت الفتاة في وجه رادولف لتجد الاضطراب والقلق الشديدين باديين عليه. في حين كان اولاف ينتبه من وقت الى اخر ويزم شفتيه امتعاضاً. ما هو موضوع الحديث المهم الدائر بين الرجلين؟ سؤال لا يمكنها ان تجيب عليه قبل ان تلم بلغة هؤلاء القوم.

بعد ذلك بدأ القوم يوجهون الاسئلة الى رادولف فيجيب عليها باقتضاب والأولاد الحفاة يرتدون ثياباً بالية يحملقون في ثيابها النظيفة والانيقة بانبهار.

نظر رادولف الى لين فعاد الى عينيه لمعان الشر. وبلمح البصر حملها بين يديه وسط تعليقات الجميع الى عربة ارشده اليها اولاف.

صاحت لين في الغجر:

- هذا الرجل خطفني! ستلاحقون جميعكم ان لم تساعدوني!

نظرت حولها تبحث عن احدهم يتعاطف معها فلم تقع الا على وجوه ضاحكة ونظرات متهكمة. لا امل بأن يساعدها احدهم فالجميع وحدة متماسكة والأفراد يتعاونون وان على اعمال الشر.

ادخلها رادولف الى العربة ثم خرج بسرعة بعد ان اغلق الباب بعنف. هنا، في هذه العربة، لن يتدخل احد لانقاذها. عليها ان تواجه الرجل وحيدة خصوصاً وانه يبدو زعيماً او ملكاً على قومه يذعنون لمشيئته بدون نقاش. اغرورقت عينا لين بالدموع فساعة الاستحقاق حلت. شرعت تبحث في العربة عن وسيلة للخروج من سجنها الصغير. مكان قذر فيه اريكة وطاولة مستديرة مع بعض الكراسي العتيقة. في الطرف الآخر سرير ضيق، وعلى خزانة كتب عتيقة وضع مصباح زيتي يغطيه غبار سميك. كأن احداً لم يشغل هذه العربة منذ وقت طويل فالقذارة المنتشرة في ارضها وعلى محتوياتها لا توصف.

وقفت عينا الفتاة على احدى النوافذ الثلاث. كانت واسعة بعض الشيء، بحيث تتمكن من التسلل عبرها. فاشرق في نفسها قبس من أمل. لكن الغجري لم يحضرها إلى هنا ليدعها تفلت من يده لا سيما وأن قومه المنتشرين حارساً لن يسهلوا عليها أمر الفرار.

في خلدها تدور أسئلة كثيرة: من هو رادولف بالحقيقة؟ من هو بوريل الذي تحدث رادولف وولاف عنه بكثير من الخشية؟ لكن السؤال الأكثر أهمية وإلحاحاً يبقى: ماذا سيكون مصيرها؟

٢ ـ امرأة في شرك

دخلت ليزي إلى زاوية صغيرة في العربة يفترض أنها مطبخ. كان فيه مغسلة قذرة وموقد يعمل على الغاز أكل عليه الدهر وشرب. لم تتمكن الفتاة من تحمّل الرائحة التي تدعو إلى الغثيان. ولما همّت بالخروج سمعت أصواتاً قريبة في الخارج. أطلت من النافذة الضيقة فرأت رادولف وولاف يتحدثان ويقفان بعيداً عن باقي أفراد المخيم. كانا يتحدثان بالانكليزية فربضت ليزي تحت النافذة من دون أن تدع رأسها يطل لئلا يراها أحد وأخذت تسترق السمع.

ـ أعرف أن الأمر يقلقك يا رادولف لكنه حر في اختيار طريق حياته.

ـ لا تقنعني أنه محق في سلوك هذا السبيل!

- أوافق معك والدليل اني بحثت عنه كثيراً كما طلبت مني، لكنه مراوغ لئيم ولا يهدأ في مكان. منذ بضعة أيام بلغني انه موجود في أحد المخيمات فهرعت الى المكان لأجده قد غادر.

- قيل لي انه سافر الى الخارج لبعض الوقت.

- صحيح لكنه عاد الى ايرلندا الآن.

- اعلم ذلك يا اولاف والا لما كنت تراني هنا. فهذا الغجري الجسور انه في هذا المخيم.

- كنت متجهاً الى هنا اذن عندما خطفت الفتاة.

- بالطبع، والا لما...

توقف راندولف عن الكلام بسبب انتباهه لين. ما هي بقية الجملة التي لو لم تكن من السماع لفهمت كل الحكاية؟ شعرت الفتاة بالخيبة لسماعها كل هذا الحديث من دون ان تستفيد منه بشيء. لكن اولاف عاد الى الكلام فسمعته يناقش راندولف في موضوعها:

- ماذا تنوي ان تفعل بها يا راندولف؟

- سأجعلها تدفع الثمن غالياً الغجري بالسوط ولنعتها إياي بالغجري الشرير، حثالة المجتمع.

- اعذرها يا راندولف، فالناس يتذكرون افكاراً خاطئة عن الغجر.

وجدت لين نعومة وتسامحاً كبيرين في صوت الرجل، لكنها لم تر أملاً كافياً برغبته في مساعدتها لأن الجميع هنا يطيعون أوامر خاطفها على ما يبدو.

- انا لا اظن احداً يسمح لنفسه بإهانتي!

- لكنها تبدو فتاة طيبة فلا تحطم حياتها.

لم تفهم لين لماذا يستغرب اولاف تصرف راندولف معها. أليس من عادة الرجل ارتكاب مثل هذه الاعمال؟ ام ان اولاف لا يعرف حقيقة صديقه الشريرة خصوصاً وانه لا يعلم بالحادثة الاولى التي كانت الفتاة فيها ان تقع ضحية اعتداء راندولف لولا تدخل صديقه الغجرية في اللحظة الحاسمة؟ ولو كانت تلك الغجرية زوجة

راندولف لعارضت اولاف في اختطافها بشدة اكثر.

تكلم الغجري الشاب بكل تصميم وجدية:

- اسمع يا صديقي، انا انوي ان انال منها التعويض العادل عن فعلتها، فإذا لم تتمكن من تحمل ذلك لن يكون الذنب ذنبي.

ادركت لين من لهجته القاسية ان الرجل ليس مستعداً للعودة عن قراره وانه يخضع لغرائزه ضارباً عرض الحائط اي اعتبار آخر.

حاول اولاف من جديد ان يثنيه عن عزمه:

- الفتاة تقول انك اختطفتها وهذا صحيح. وانت تعلم ان الاختطاف جريمة خطيرة يعاقب عليها القانون بصرامة. عليك ان تفكر بوضعك الخاص يا صديقي قبل ان يفوت الأوان، فنحن بغنى عن المشاكل. ظننت ان الايام كانت كفيلة بتهدئة طباعك الحادة بعض الشيء، وبتعليمك كيف تكبح جماح اعصابك، وها انا الآن أجد نفسي على خطأ.

تساءلت لين عن الوضع الخاص الذي تكلم عنه الغجري الكهل. أيعني به ان راندولف هو ملك الغجر في كل ايرلندا؟ تفسير معقول قد يوضح كلمة الوضع الخاص والاحترام الذي أظهره هؤلاء القوم للرجل، كما يوضح كذلك عدم استقراره في مخيم واحد وتنقله الدائم من منطقة الى اخرى.

- أتعتقد اني اخاف من العقاب يا اولاف؟ الا تعلم اني لا احسب حساب النتائج عندما اقرر الاقدام على خطوة أنا مقتنع بها؟

اطلق راندولف ضحكة قوية قبل ان يكمل:

- لا تقلق يا عزيزي سأتدبر الأمر بمهارة!

فهمت الفتاة من كلماته انه معتاد على هذه الاعمال وان خبرته فيها طويلة بحيث لا يخاف الوقوع في أيدي العدالة. لكن اولاف ما يزال قلقاً، ولم يشاطر صديقه مرحه اذ قال بكل جدية:

- أحس بنفسي مسؤولاً لاني كنت أعلم منذ البدء...

قاطعه راندولف مطيباً خاطره:

- لكنك تكلمت في النهاية عزيزي اولاف، انت متقدم في السن لدرجة تكفي لئلا تمضي سنواتك الاخيرة بالندم ووخز الضمير. اظن اني كنت تصرفت مثلك تماماً لو وجدت نفسي في ذات الموقف.

- يسرني سماعك تقول هذا. مع اني عندما اراك ترتكب افعالاً غير قانونية، كاختطاف هذه الفتاة المسكينة، الوم نفسي لاني لم اتكلم قبل ذلك بكثير.

- لا، كان عليك انتظار موتها لتفعل.

تسمرت لين ورطتها وهي تسمع هذا الكلام الغامض. هناك مأساة ما حدثت هنا. لما يظهر ان اولاف لم تكلم ويبوح بالسر الغامض لما كان رادولف اليوم شريراً الى هذه الدرجة. ولكن ما هو السر الذي كتمه الغجري الكهل؟

- اشكر تفهمك يا عزيزي.

صمت الكهل قليلاً ثم تابع محاولاً اقناع صديقه الشاب:

- ولكني أسف للفتاة المسكينة.

- لا داع للأسف لانها اوصلت نفسها الى هنا بحماقتها!

غريب كيف يتحول صوت رادولف عندما يغضب. كانت تعرفه رقيقاً قبل ان يتحدث عنها فصارت قاسية الى درجة الفظاظة.

- هي انكليزية أليس كذلك؟

- تماماً.

- إذن لا بد ان يكون أحد ما قد بدأ البحث عنها: عائلتها ربما...

- غير ممكن يا اولاف فالفتاة وحيدة هنا.

- من قال ذلك؟

- هي صرحت لي بأنها تمضي اجازتها في ايرلندا وتجوب البلاد وحيدة بسيارتها.

- اسمع يا رادولف، تبريراتك لا تقنعني بصحة عملك.

- لن اتراجع عن خطتي ابداً!

- ولكنك ستوقع نفسك في مشكلة كبيرة.

- لا تقلق يا صديقي. لن يبحث عنها أحد لانه يفترض انها تركت الفندق الذي كانت تنزل فيه واتجهت الى منطقة جديدة.

- ولكن اين السيارة التي تكلمت عنها؟

اخبره رادولف بكل التفاصيل وبأن السيارة مفتوحة والمفاتيح ما تزال بداخلها. عندها فقط ادركت لين انها صرحت للرجل بحماقة لا مثيل لها بكل ما يسهل له اتمام جريمته.

ابتعد الرجلان قليلاً فلم تعد الفتاة تتمكن من سماع بقية الحديث ولكنها استطاعت التقاط جوهره.

- عليك احضار سيارتها بأسرع ما يمكن يا اولاف كي لا تبدأ الشكوك تحوم حول تركها في الموقف.

- لا ارتاح لعملك يا صديقي. هذا ليس من طبعك بل من طبعه...

تلاشت الاصوات اذ ابتعدا كثيراً عن النافذة. ففكرت لين مرة جديدة في اكتشاف اللغز الذي بدأت تشعر بوجوده في حياة هذا الغجري الذي طلع من العدم ليقلب حياتها.

ماذا سيفعل الآن بالسيارة؟ لكم كانت غبية عندما اطلعته على كل شيء. لو لم تفعل لكان احدهم لاحظ بقاءها الطويل في الموقف وأبلغ الشرطة بالأمر. ولكن لا يمكن ان تضيع آثار لين لمدة طويلة فمن المحتم ان يفتقدها زملاؤها عندما تنتهي اجازتها وتقتضي عودتها الى العمل. كما سيفتقدها مالك البناية عند استحقاق قسط ايجار شقتها الشهري. سيأتي من ينقذها من قبضة الغجري عاجلاً ام آجلاً. لكن المقلق ان هذا الرجل يملك ثقة كبيرة بنفسه تجعلها تخاف من ان يتدبر الأمر بشكل محكم ينجو فيه من اي عقاب على جريمته النكراء.

اين هو الآن؟ غيابه يزيد من قلقها وتوترها. كم يمارس هذا الرجل لعبة حرق الاعصاب ببراعة! أه لو يستطيع اولاف اقناعه

بالافراج عنها؟ أتية بقدومها أصوات ثرثرة في الخارج باللغة الغجرية
شعرت ليز من دون ان تفهم شيئاً انها موجهة اليها. بدأ قلبها يخفق
بقوة واحست بأن جسمها مشلول وعقلها معطل. صار كل كيانها
منصباً على اللحظات الزاحفة ببطء. تحمل في كل ثانية جبالاً من
القلق والخوف. متى سيأتي رادولف؟ وماذا سيفعل عندها؟ كم كانت
متهورة عندما ضربته بالسوط! لكن الطريقة الفظة التي حياها بها في
الغابة وكأنه يراها للمرة الاولى أججت في صدرها نار الغضب.
كيف استطاع مواجهتها بكل هذا الهدوء بعد الحادثة الاولى قرب
المخيم؟ استحق الضرب وان تكن النتيجة وجودها هنا سجينة رجل
شرير ينوي تحطيمها، وبين أناس لم يسمعوا بالشفقة ووخز الضمير.
من سينقذها من المصير الذي أعده ويعدّه لها خاطفها؟

زادت حيرة ليز بعد تحليلها للموقف. فحاولت فتح الباب، ثم
اخذت تطرق بيديها عليه وهي تعلم ان عملها لن يجدي نفعاً. لكن
اليأس دفعها الى هذه المحاولة الفاشلة. انهارت وسقطت على
الارض تجهش بالبكاء في حين تعالت في الخارج قهقهات شريرة من
الغجر المتلذذين بعذابها ومعاناتها. في اي حال هي ليست ضحيتهم
الاولى ولن تكون الاخيرة.

سمعت ليز اسم رادولف يلفظ مرات عدة واستطاعت التعرف
الى صوت اولاف المميز بوقاره. وعندما انطلقت ضحكة جديدة
صمّت اذنيها كأن قنبلة انفجرت قربها. لم تستوعب كيف يتمتع
الناس بآلام آخرين. امر لا يقبله منطق الفتاة ولكنه امر طبيعي بالنسبة
الى هؤلاء.

اخذت ليز تدور في الغرفة، تقيسها طولاً وعرضاً. تجلس على
كنبة، تنهض، تتربع على السرير... اخيرا أزاحت الستائر عن
النافذة ورأت أربع عربات قديمة مطلية حديثاً. لطالما اعجبت
بالعربات القديمة بسبب ايحاءاتها الرومنطيقية. تفكر الآن بالاعجاب
والرومنطيقية؟ اذا خرجت من هنا حية لن تنظر الى عربة في

حياتها... تسمّرت السجينة في مكانها اذ سمعت وقع خطوات قريبة
واستقرت عيناها على مقبض الباب تنتظر فتحه وراحة. أدير المفتاح في
القفل ودخل رادولف. رمقها بنظرة عدم اكتراث واقفل الباب
وراءه. ثم اتجه الى السرير وتفحصه جيداً قبل ان يقول بصوت
حاقد:

- حسناً يا حلوتي، وصلنا الآن الى الفصل الختامي من المسرحية.

ابتسم هازئاً ولمس الجرح في خده. ارتعبت ليز عندما رأت
عمق الجرح الذي سببته للرجل لأنها لم تؤذ احداً في حياتها من قبل،
لكن وقاحة الغجري دفعتها الى استعمال العنف معه.

اصبحت لهجة رادولف آمرة عندما تكلم من جديد:

- تعالي الى هنا لتتلقي العقاب على نعتك اياي بحثالة المجتمع

وصاح فيها بعنف:

- تعالي الى هنا! زاد جرحه احمراراً بسبب الغضب ولم تجد ليز بداً
من الاذعان لمشيئته خوفاً من بطشه. امسك بمعصمها وشدها اليه
بقوة بالغة حتى كاد يحطم عظامها. لم تستسلم الفتاة له بل
انطلقت تقاوم بكل ما اوتيت من قوة فيما هو يقهقه عالياً ساخراً من
مقاومتها. صرخت ليز من الألم عندما أطبق بيده الفولاذية على
شعرها وارغمها على رفع وجهها الى عينيه الآسرتين. وبوحشية فائقة
اخذ رادولف يطبع قبلاته على جبينها ووجنتيها وعنقها فيما الدموع
تنهمر من عينيها سيولاً. حتى انها عندما نظرت اليه رأت الصورة
مشوشة كأنها امام شبح لا امام انسان من لحم ودم. وما زادها حيرة
وتعجباً اخراجه منديلاً من جيبه ليمسح دموعها بكل رقة وحنان!

- لقد اصبحت الآن اكثر حرارة وتملكاً. ولكن اقل
لباقة ووحشية. نظرت الى الرجل بارتباك. وجه جامد كأنه محفور في
الصخر، نظرات باردة لا تنم عن أي احساس. ماذا يدور في خلده؟
ماذا وراء هذه الملامح القاسية؟

- أعندك شيء تقولينه قبل ان افقد اتزاني كاملاً؟ كنت انوي ان استعمل السلاح نفسه.

اشار راندولف الى السوط المرمي على الارض وتابع:

- لكن آثار الجروح تفسد جمال وجهك. لذلك طرحت فكرة جلدك جانباً واستعضت عنها بطريقة انتقامية ممتعة مفيدة.

رأت ليز في ابتسامته سخرية لا متناهية وفي عينيه علامة الانتصار. وفي الوقت عينه ادركت انها اخطأت عندما أهانته وانه لن يغفر لها ذلك. لقد نعتت الغجر بحثالة المجتمع ورعاع القوم وراندولف مصمم على جعلها تدفع ثمن ذلك غالياً.

كرر الغجري سؤاله:

- أعندك شيء تقولينه قبل ان افقد اتزاني كاملاً؟

وجدت الفتاة صعوبة في نطق الكلمات:

- أتريدني ان استجدي منك الرحمة؟

- مع الأسف الشديد لن يجدي استجداؤك نفعاً لاني لست ذلك الشخص السامح.

التفتت ليز الى الوراء ونظرت من النافذة فرأت اولاف يعتمد على العصا، ومعه يتلاشى أملها في المساعدة... قالت لمختطفها بصوت متهدج تخنقه الدموع:

- لن تنجو بفعلتك من دون عقاب. عندما أخرج من هنا سأذهب فوراً الى الشرطة.

علّق راندولف وهو ينظر الى وجهه المجروح في المرآة:

- الحديث عن الخروج سابق لأوانه يا عزيزتي فأنت جميلة جداً ولن أمل منك بسرعة.

تبسّم هازئاً وأضاف:

- ربما لن تخرجي من هنا ابداً.

لم تتمكن ليز من استيعاب هذه الفكرة وتصورت نفسها سجينة هذه الغرفة بقية حياتها... وفجأة طرأت لها فكرة أشد رعباً.

- ماذا... ماذا تنوي ان تفعل بي؟

رفع حاجبيه وأجاب:

- لا تتظاهري بالبراءة وتدعي انك لا تعلمين ماذا سأفعل بك!

علت الحمرة وجه الفتاة خجلاً فأوضحت:

- أعني ماذا ستفعل بي بعد...

توقفت ووضعت يدها على قلبها الخافق بشدة ثم اضافت بهلع:

- هل تنوي ان تقتلني؟

هز راندولف رأسه ضاحكاً:

- أقتلك؟ خسارة اهدار هذا الجمال. لا، لن أقتلك لأني لا أريدك جثة هامدة بل امرأة تضج بالحياة.

أنساها الغضب خوفها فانفجرت:

- اسمع يا حضرة الغجري. قد يكون جسمي تحت رحمتك ولكن لا تتوقع مني أي تجاوب لأنك لا تستطيع امتلاك روحي!

طوقها بذراعيه فحاولت المقاومة ولكن دون جدوى لأن قواها قد خارت.

- سنرى يا عزيزتي ان كنت ستحاولين أم لا، فلندع ذلك للوقت.

أخذ يداعب شعرها وعنقها فانتفضت وأنشبت اظافرها في وجهه مسببة له نزفاً جديداً من الجرح.

ولكنها ما لبثت ان ندمت على ذلك لأن الغضب أعماه فكاد يخنقها وهي مستسلمة ليديه الخانقتين تعاقبانها على طريقته...

- سأعلمك الآن كيف يعامل رعاع القوم نساءه أيتها السيدة الانكليزية المتحضرة.

توسلت اليه وهي تحاول لملمة قميصها الممزق:

- أرجوك ارحمني! أعتذر.

أكمل راندولف على ما تبقى من قميصها ووقف يحدق فيها بعيني شقي شرير.

- الاعتذار لا ينفع يا حلوتي. أما الدرس الذي سألقنك إياه الآن فنافع جداً!

حملها بين يديه كالدمية ورمى بها على السرير. ثم وقف يلتهم بنظراته كل ذرة من جسمها. حاولت لين ان ترى في عينيه من الرأفة فلم تجد الا الرغبة في الانتقام. وعلى الرغم من خطورة الموقف تعلقت لأنها وجدت في الرجل وسامة غريبة. وسامة بدائية وحشية كتلك الموجودة في انسان الغابات الذي بقي بريئاً من تلوّث المجتمع الانساني.

بدون اي شك كان راءول المنتصر في هذه المعركة، المنتقم الساخط الذي سيتغلب على أية محاولة تبديها للمقاومة. أخذ يضحك وهو ينظر الى البقية الباقية من ملابسها قبل ان يكمل عليها، فحاولت لين ستر نفسها بغطاء السرير.

غشاها الخزي والعار وتمنت لو ان يد الموت تمتد لتنقذها من مرارة هذه اللحظات المشينة.

- ما رأيك يا حلوتي بهذا التعذيب البطيء؟ اعتقد انك لم تتوقعي ذلك ابداً عندما أطلقت بالسوط على وجهي، أليس كذلك؟

وفجأة اجتاح وجهه حقد محا أي اثر للمرح جاعلاً الرجل ينظر شزراً والفتاة ترتعد خوفاً وتتساءل كيف يمكن لانسان طيب مثل اولاف ان يعتبر هذا صديقاً...

- نفد صبري ولن أتمكن من اطالة عذابك اكثر.

نزع الغطاء من يدها فتمتمت:

- اكرهك، اكرهك... سأقتلك يوماً.

- ستكرهينني اكثر يا حلوتي. ستكرهين الغجري المتشرد وسوف تستجدين منه الرحمة!

استشفت لين من صوته مرارة الى جانب الغضب كأن الرجل يغار كثيراً على سمعة بني قومه ولا يتحمل أية اهانة توجّه

اليهم.

- آن الأوان يا حلوتي ليبدأ الانتقام الممتع.

أغمضت لين عينيها وبكت بمرارة مستسلمة لقدرها المحتوم.

٣ ـ اللعب بالنار

تزايد الضجيج في الخارج وطرق أحدهم الباب فاهتاجت لين من ذعرها ولاح لها أمل جديد.

اتجه رادولف نحو الباب فسأله:

ـ ما الأمر؟

وقبل ان يفتح الباب سمع الرجال في الخارج يرددون أغنية غجرية فانفجر ضاحكاً. تقدمت امرأتان من مدخل العربة فغرقت لين في أغطية السرير محاولة اخفاء نفسها والخجل يغمرها. تبادل رادولف بعض الكلمات مع الزائرتين ورمى أحد المتحمسين الى لين فستاناً زاهياً. توقف رادولف يفكر وينظر الى الفستان بينما كانت الفتاة تحاول جاهدة حل اللغز الجديد. ماذا يخطط لها هؤلاء القوم؟

ألا يكفيها شر عاطفتها وحدها لتتحمل الآن شرور الآخرين؟

أخيراً نطق رادولف:

ـ ولم لا؟

سألت الفتاة متلهفة بكل إلحاح والخوف يعصر قلبها ويمحو سراب الأمل الذي لمحته بعد ان سمعت الطرق على الباب:

ـ ما الأمر؟

وارتسمت بسمة شبه عصبية:

ـ قل لي ما الأمر!

ـ القوم يطالبونني بالزواج. تصوري ان فرداً من جماعة المجتمع سيتزوج فتاة من نخبة المجتمع! وجدت انهم على حق فقد آن الأوان لأتخذ لنفسي امرأة.

ثم اضاف بعد ان نظر الى الفستان:

ـ أحضروا لك فستان العرس، ارتديه!

امتقع وجه لين وصاحت من الغيظ:

ـ لا! لا يمكن لأحد ان يجبرني على الزواج.

امسكت بالفستان ورمته في وجه الواقفين على الباب ثم صرخت:

ـ ارحلوا عني وخذوا هذه القذارة معكم!

التحق رادولف ليلتقط الفستان وباشارة واحدة من يده أبعد قومه المتحلقين وتوارى الشر في أعينهم بعد ان افلتتهم العروس العنيدة. ثم اغلق الباب بعنف واقترب من السرير مهدداً متوعداً:

ـ ارتدي الفستان.

مررت لين لسانها على شفتيها الجافتين وشرعت في محاولة للتملص للتهرب من شرك الزواج.

ـ افترض انني متزوجة.

نظر الغجري الى يدها اليسرى ليرى ما اذا كان في اصبعها خاتم زواج.

ـ لا اعتقد انك متزوجة وعلى كل حال هذا لا يغيّر في الأمر شيئاً.

ارتدي الفستان الآن اذا كنت تريدين ان اقوم بالعملية بنفسي.

اخذ دماغ الفتاة يعمل بسرعة مفتشاً عن الحل الأفضل. فوجدت ان في الاذعان لمشيئته والخروج من هذه الغرفة فرصة للحصول على مساعدة أحد والخلاص من قبضة خاطفها. فقالت له وعلى جبينها علامة الرضوخ:

ـ حسناً، لا خيار لي إلاّ بقبول الزواج. وفي أي حال يظل الزواج أفضل من . . .

أكمل الغجري الجملة ضاحكاً:

ـ أفضل من العلاقة غير الشرعية؟

ـ هلا تفضلت بالخروج لأغير ملابسي؟

ـ ولماذا تخجلين من زوجك؟

ـ أنت لم تصبح زوجي. ولن تصبح كذلك إلا في الشكل لا في الجوهر!

كان عقلها ما يزال يفتش عن وسيلة للهروب. كم هي المسافة بين المخيم والطريق العام؟ وهل يسمعها أحد اذا صرخت مستغيثة؟

نفد صبر راندولف من الانتظار فقال:

ـ لقد رأيت كل شيء تقريباً فلا داع للخجل! انهضي من السرير وارتدي ثوب العرس.

نهض الرجل من كرسيه لأن الفتاة لم تنفذ أمره فقالت له باذعان وخوف:

ـ أرجوك عد الى كرسيك فسأنفذ مشيئتك.

جلس الغجري يتمتع بمشاهدتها تغير ملابسها في حين انها وجدت صعوبة بالغة في التحرك امام هذا الرجل الخبيث، الوقح، الذي سبب لها إذلالاً ما بعده اذلال. وعلى الرغم من صعوبة الموقف لمحت الفتاة في عيني خاطفها بريقاً مختلفاً عن الشر والسوء، رأت ما يشبه الاعجاب!

كان الفستان طويلاً، وحسن الخط، نظيفاً. وقفت لين امام

راندولف الذي امسك بيدها وقال:

ـ ما رأيك بقبلة سريعة؟

ثم انتبه الى أمر تافه بالنسبة اليه فسألها:

ـ هل فكرة ما اسمك؟

وجدت لين في غرابة الموقف ما يضحك. العريس يسأل عن اسم عروسه قبل دقائق من الزواج!

ـ اسمي . . . لين.

ـ اسم جميل. لين ماذا؟

ـ لين ستافورد.

ـ تعرفين اسمي على ما اعتقد.

ـ لست بحاجة الى ان اعرفه لاني لن أناديك على الاطلاق.

ـ أول أمر على المرأة الغجرية ان تتعلمه هو الطاعة العمياء لزوجها يا حلوتي. ستفهمين ذلك تدريجياً. أما الآن فهيا لأن القوم بانتظارنا.

في الخارج، نظرت لين الى الطريق فتنفست الصعداء لأنه ليس بعيداً جداً عن المخيم. لربما تمكنت من الافلات او لفتت انتباه أحد يمر بسيارته فيأتي لانقاذها. لكن راندولف وقومه كانوا يحيطون بزواجها، لذلك وجدتهم يحيطون بها بشكل لا يدع مجالاً لأية محاولة للفرار.

بدأ الرجل المختص باتمام المراسيم الشكلية الخاصة بالزواج عند الغجر، والتي لم تفهم منها لين شيئاً. وقفت تراقب بصمت المشاهد المبهمة التي تمر امامها كأنها مجرد متفرج لا علاقة له بما يجري. هل زواجها هذا شرعي؟ ولكن أمر الزواج لم يعد مهماً ازاء تصميمها النهائي على الفرار مهما كانت الصعاب ومهما كلفها ذلك من تضحيات. زادها تصميمها شجاعة وايماناً بالخلاص لأن الارادة الحديدية، متى توافرت، قادرة على زحزحة الجبال.

صحت فجأة من شرودها على صوت زوجها الغجري راندولف:

ـ تعالي يا زوجتي. سيصطحبنا المحتفلون الآن الى عشنا

الزوجي.

أخذ الرجل يضحك بينما كانت لين تفور غضباً. وضعت يديها خلف ظهرها عندما حاول زوجها وضع يدها في يده مما أثار ضحك الجميع. لكن الغريب في الأمر ان حنقها تحول الى غضب بارد وتصميم على الانتقام.

امسك راوولف يدها وصفعها عليها بنعومة كأنه يمازحها. ثم رافقها الجميع الى العربة وكان البعض يرقصون ويغنون احتفالاً بالمناسبة السعيدة وبتخلي الزعيم عن العزوبية.

اخيراً وصلت لين الى نهاية المشوار فأغلق الباب وراءها ووجدت نفسها مع زوج منشرة . . . بعد اسبوعين فقط من وصولها الى هذه البلاد لتمضي اجازتها.

افاقت لين على أشعة الشمس المتسللة من بين الستائر لتداعب عينيها. تدافعت الصور في مخيلتها، صور الاهانة والذل. ليت لو انها لم تقاوم بشراسة ونعتت زوجها بالغجري القذر. فربما كان عاملها بشكل أقل شراسة مما فعل. لقد سببت بتصرفها الأحمق غضبه فكان عليها بالتالي تحمل النتائج.

كان راوولف مصمماً على ترويضها عندما حاولت ابعاده وهي تعلم ان ما قامت به عقيم لا يفيد مع هذا الشخص؟ لكن عدم استسلامها أعطاها دفعاً من الثقة بالنفس سوف يجعلها تصمد امام ما ينتظرها من صعوبات ومشاق.

جلست تنظر الى الرجل النائم الى جانبها. عيناه المغمضتان كعيني طفل بريء، ينام في هناء بين احضان امه. يا للتناقض وحشيته مع هذه القسمات الهادئة! رغبت لين بصفعه لكونه يتمكن من النوم هكذا بعد كل ما سببه لها البارحة من آلام واذلال. تحرك الرجل اخيراً وفتح عينيه يحدق حوله وكأنه لا يعرف أين هو ومع من.

- صباح الخير يا زوجتي العزيزة. ارجو ان تكوني قد نمت جيداً.

لم تنتظر لين طويلاً حتى تطرق الموضوع فبادرته بالسؤال:

- قل لي ماذا سنفعل الآن. هل سنبقى لأعيش مع هؤلاء القوم؟

- وأين تريدين العيش؟ الزوجات يسكن عادة مع ازواجهن، ام ان عاداتكم في انكلترا تختلف؟

- لكنني لن أجد شيئاً افعله هنا.

- في الوقت الحاضر ستهتمين بزوجك.

- ماذا تعني بالوقت الحاضر؟

- أعني حتى تبدأ بانجاب الاولاد والغجر يحبونهم بكثرة كما لاحظت.

امتقع وجه لين وهي تحلل الفكرة الجديدة التي إن تحققت ستعقد أمر فرارها.

- أقول لك انا لا انجب أي ولد منك!

تكلم راوولف بمرارة فاجأت زوجته لما فيها من ألم وحسرة:

- ستنجبين أولاداً لأن هذه هي رغبتي ولأني كمثل الرجال ارغب بوجود وريث لي.

- وريث؟ وماذا تملك لتعطي وريثك؟

- دعيني أقدم لك نصيحة غالية يا لين. لا تغضبيني بعد الآن ولا تندمي على ذلك حيث لا ينفع الندم. واحذرك انك لم تري مني الأسوأ بعد!

التمست الزوجة البائسة:

- كان الله في عوني . . .

رمقها الغجري بنظرة ثاقبة وقال:

- تماماً. وخلافاً لما تعتقدين، انا املك اشياء كثيرة أقدمها لوريثي.

- طبعاً تملك هذه العربة القذرة، وسمعتك السيئة . . .

لم تتمكن لين من المتابعة، أخرسها الألم عندما اطبق راوولف بقبضته الحديدية على ذراعها.

- لا تعتبري مسألة فقري مسلماً بها ولا تحاولي تخمين ممتلكاتي

زاد من شدة قبضته وهتف:

ـ يجدر بي ان اعمل على تهذيبك يا امرأة...

تحررت لين من قبضته وحاولت النهوض من السرير. لكن رادولف كان أسرع منها فشدها اليه بعنف واستسلمت بعد مقاومة يائسة لاصراره...

بعد حوالي الساعة جلسا الى الطاولة لتناول طعام الفطور. لم يكن رادولف مهتماً بالاكل بقدر ما صب اهتمامه على مراقبة زوجته متلذذاً بعذابها.

سألها وهو يتحسس الجرح في خده:

ـ هل ندمت على فعلتك أم بعد؟

ـ استحققت الضرب وأنت تعلم ذلك.

ـ استحققته؟

بدا رادولف متعجباً فتساءلت لين ما اذا كان قد نسي انه هاجمها عندما تعطلت سيارتها قرب المخيم.

ـ أنسيت عندما حاول الغجري الخطير...

لم يدعها رادولف تكمل اذ قلب المائدة وهب من كرسيه يعميه الغضب. فتراجعت لين خائفة حتى التصقت بحائط الغرفة وهي تلوم لسانها الطويل الذي أوقعها في هذه الورطة

تقدم منها الرجل مزمجراً:

ـ ستعتذرين عن هذه الاهانة! وستعتذرين بكل تذلل وضعة.

حدقت لين مشدوهة في هذا الوجه الشرير وهي لا تكاد تصدق ان كل هذا الحقد يمكن ان يتجمع في انسان واحد. لما وجدها ساكتة جذبها الغجري اليه واخذ يهزها بقوة كبيرة حتى كادت تصاب بالاغماء. اخيراً، قال وهو يعض على اسنانه:

ـ أنا انتظر الاعتذار!

لم تدع لين الفرصة تفلت من يدها فألحت في لهجة:

ـ اعتذر على ما قلته...

توقفت فجأة لتخنق صوتها الدموع المنهمرة من عينيها بحرارة. الظلم لم يكن جسدياً فقط بل طال الناحية النفسية كذلك. الرجل كان يستحق الضرب والا لما فعلت لين ذلك، وعلى الرغم من صواب موقفها أرغمها على الاعتذار صاغرة على الشيء قالتها عن اقتناع تام.

رفعت عينيها الى وجهه الغاشم، الى الملامح السيئة المتعالية التي تكتسب تفوقاً واضحاً على خصومه. من يراه يظنه احد النبلاء، ولا يمكن ان يشك بأنه غجري شرير. غجري ذو مظهر ارستقراطي متعجرف... أمر غير معقول.

ـ اظهرت تعقلاً في الاعتذار يا حلوتي، لأن أية كلمة مهينة كانت ستكلفك شهر مقاطعة!

حرر كتفيها ونظر الى الطاولة المقلوبة والى الاطعمة والصحون المتناثرة على الارض. اقشعر بدن لين تقززاً من القذارة الطاغية في هذه الغرفة. أمرها رادولف بالتقاط كل ما تناثر على الارض فلم تجد بداً من الاذعان له فيما هو جالس على الاريكة يراقب عملها، وبعد ان انتهت قال:

ـ احضري لي طعاماً جديداً فالجرح نتيجة حتمية للارهاق.

رافقت الدموع لين في كل اعمالها. ماذا فعلت كي تستحق هذا المصير الأليم؟ أية خطيئة ارتكبت لتنال هذا العقاب الصارم؟ اي ذنب اقترفت لتلقى هذه المذلة؟

بعد قليل أبلغها رادولف انه سيغيب طوال النهار.

ـ الى اين ستذهب؟

ـ هذا ليس من شأنك. كما احب ان اذكرك بألا تحاولي الفرار لأن الغرفة ستكون مراقبة من جميع الجهات. ونظر حوله:

ـ اريد ان أجد كل شيء نظيفاً ومرتباً عندما اعود. الا اذا احببت ان استعمل معك العنف!

كانت لين تعلم انه لا يمزح وانه على استعداد لضربها فلم تجب

على نهديداته.

لم يكن عملها بسيطاً البتة فالغرفة قذرة فعلاً وتحتاج الى ايام لتصبح صالحة للسكن. بدأت أولاً بتنظيف الأثاث الذي كانت الخدوش عليه عميقة كالخنادق! مع ذلك بدا أحسن بقليل عندما غسلته ولمعته بقطعة قماش وجدتها في الخزانة. المرحلة الثانية كانت تنظيف أرض الغرفة والأوساخ المتجمعة، منذ سنوات على ما يبدو، تشكلت في بعض المواضع تلالاً صغيرة اضطرت لين لاستعمال السكين لنزعها.

ألا يكفيها انها تعيش مع زوج وضيع ليزيد الطين بلة وجودها في هذا المكان القذر؟ حتى راندولف أظهر بعض القرف من القذارة وكأنه ليس معتاداً على هذه المشاهد!

جلست لين على الأريكة لترتاح قليلاً وتفكر كثيراً. حاولت جمع قطع الأحجية، فزوجها بدا غريباً في بعض أقواله وتصرفاته. قبل كل شيء في صوته نبرة رقيقة لا يملكها الا معشر الأخلاق والمهذبون. لا يصيح غالباً الا في ساعات الغضب و والعصبية... حاولت ولم تستطع تذكر نبرته في لقائها الأول. فهو لم يسألها الا عن السيارة وبعد ذلك انصرف الى الحركة لا الى الكلام... ثم هناك الحصان الأصيل الذي كان يمتطيه عند لقائها الثاني. من أين يمكن لغجري فقير الحصول على مثل هذا الحيوان الرائع؟ والأكثر غرابة تمكنه من الوصول الى هذه المنطقة بسرعة بينما أمضت لين ساعات لبلوغها بالسيارة! هذا يعني انه استعمل وسيلة أسرع من الحصان بكثير.

اطلقت زفرة الفشل وقامت تكمل عملها لعلها بانشغالها تنسى عذابها قليلاً.

وجدت أن السجادات بحاجة الى نفض في الخارج. ولكنها كانت تهرب من التحدث الى أي من الغجر ومع ذلك لا يعقل ان تفرش السجادات الوسخة على الأرض النظيفة. قررت اخيراً فتح النافذة وما ان فعلت حتى ظهر امامها حارس، شاب لا يتجاوز العشرين

من عمره.

قالت له على أمل ان يكون يفهم الانجليزية:

ـ اريد نفض هذه السجادات.

ـ سأفعل ذلك بنفسي.

ابتسم الشاب وهو يتناول منها السجادات فظهرت أسنان لم تر أنصع بياضاً منها في حياتها.

ـ شكراً لك.

لم تنتبه المرأة الشابة لنظرات الغجري الهائمة بوجهها الجميل. ولم تنظر لها بالطبع، انه لم يكف عن التفكير بها منذ ان أحضرها راندولف الى المخيم.

سألته عندما أعاد السجادة الأولى:

ـ هل كلفك راندولف بمراقبة الغرفة خلال غيابه؟

اومأ بالايجاب ثم تمتم بصوت لطيف:

ـ آسف لقيامي بهذه المهمة.

وجدت لين في موقفه فرصة ذهبية فاختارت كلماتها بدقة:

ـ لا عليك. فأنت مضطر لاطاعة اوامره، أليس كذلك؟

ـ الجميع يطيعون أوامر راندولف.

ـ هل هو ملك الغجر؟

ـ لا تطرحي علي اسئلة لا يمكنني الاجابة عليها يا سيدتي.

فيما كان الشاب ينفض بعض السجادات الباقيات رأت لين عينين تراقبان المشهد من نافذة غرفة اخرى، حارس آخر. ناولها الشاب السجادتين وقال:

ـ علي الذهاب الآن. أرجوك اقفلي النافذة.

ـ لا تذهب قبل ان اعرف اسمك على الأقل.

نظر الشاب حوله وتكلم بسرعة:

ـ ادعى كوبلي. علي الذهاب الآن والا عرف راندولف بأني تحدثت اليك.

وجدت لين في هذا الشاب نقطة ضعف لو عرفت استغلالها قد تساعدها على الهرب.

بعد قليل اقتربت من النافذة لترى ما اذا كان أحد يراقبها. وعندما لم تجد احداً فتحتها بهدوء فأطل كوبيل.

- هلا احضرت لي بعض الماء يا كوبيل؟

وضعت المرأة في صوتها كل ما لديها من نعومة ورقة عرفت مفعولها عندما أعاد الشاب الدلو مليئاً بالماء. وناولها اياه بيدين مرتعشتين. لم تستطع لين كتم شعور بالأسف نحو هذا الشاب الوسيم المحروم من كل ما يتوافر لأقرانه من علم وثقافة وثياب نظيفة على الأقل!

- شكراً جزيلاً.

واضافت بعد ان تأكدت من عدم وجود متطفلين.

- ماذا يحل بك اذا تمكنت من الفرار؟

- سأقع في مشكلة كبيرة.

- مع زوجي؟

- نعم فهو قد كلفني بحراسة العربة.

- أيدفع لك شيئاً مقابل ذلك؟

احمر وجه الشاب حرجاً من اسئلتها وقال بخجل:

- في الحقيقة انا بحاجة ماسة الى المال. أتريدين ان احضر لك المزيد من الماء؟

- نعم، سأفرغ الدلو واحمله.

ناولته لين الدلو وما ان غاب حتى اخذت تفتش في خزانة العربة عن قلم فلم تجد شيئاً.

سألته وهي تتناول الدلو:

- أريد ان اطلب منك شيئاً.

- ما هو؟

- أيمكنك ان تحضر لي قلماً لأكتب رسالة صغيرة؟

- لا . . .

لم تدعه لين يكمل الكلام فتوسلت:

- انا بحاجة الى المساعدة يا كوبيل! أنت تعلم اني سجينة هنا وأريد الفرار بأي ثمن!

هز الشاب رأسه وابتعد بسرعة بعد ان أغلق النافذة

لماذا يخاف الى هذا الحد من راندولف؟ من أين لزوجها كل هذه السطوة على قومه؟ كاد الشاب يلين ويقبل باحضار قلم لكنه غير رأيه فجأة وابتعد. ربما غره المال الذي يدفعه له راندولف . . .

ظلت لين قرب النافذة تراقب كوبيل الجالس على مدخل احدى العربات تحاول ان تلفت انتباهه. لكنه تحاشى النظر اليها فقررت اخيراً الانسحاب كي لا يلاحظها أحد ويخبر زوجها بالأمر.

جلست تفكر في طريقة كفيلة بجذب الشاب الى جانبها. قد يكون المال وسيلة صالحة لذلك. لكنها تركت حقيبة اليد التي تحوي مبلغاً محترماً في صندوق السيارة. هل يقبل كوبيل تحريره وعد باعطائه المبلغ بعد فرارها؟ ولكن كيف يصدقها وكيف تصل اليه لتعطيه المال؟ خطة محكوم عليها بالفشل.

تنهدت لين وقالت لنفسها:

- لا فائدة من كل الخطط. سيسجنني هذا الشرير هنا حتى يمل مني ويشعر بحاجة الى التغيير.

كانت واثقة من ان هذا الملل لن يحل قريباً. فعليها ان تحضر نفسها لتتحمل الايام الطويلة الآتية. راندولف معجب بها كثيراً وهي لا تنكر انه وسيم جداً وانها تشعر بالرضى يغمرها عندما يعانقها برغم قسوته.

أين ذهب؟ أين يغيب كل هذه الساعات؟ هي لا تتصور زوجها، كغيره من الغجر، يتنقل من باب الى باب عارضاً إصلاح مقلاة او غلاية، فطبعه المتغطرس يمنع عليه ذلك.

مرّت ساعة الغروب ببطء مزعج ولين جالسة في العربة لا تجد شيئاً

لفعله بعد أن انتهت من التنظيف وحضرت العشاء لزوجها. ذرعت نفس الغرفة عرضاً وطولاً كأنها لبؤة سجينة في قفص. حتام يمكنها تحمل هذه المعاناة؟ وقفت في وسط الغرفة وانفجرت باكية. أعصابها المحطمة لم تساعدها على اجتياز الامتحان الصعب. يا ليتها لم تستعمل السوط في تلك اللحظة المشؤومة! بل، حسناً فعلت لأنه يستحق الضرب، ولأن أي فتاة غيرها كانت فعلت نفس الشيء مع شخص حاول الاعتداء عليها...

لم تعد ليز تحتمل الوحدة حتى أنها شعرت بالارتياح عندما عاد راندولف في المساء منهوك القوى، لكن الملاحظة التي أبداها فور وصوله أعادت توترها وغضبها:

- يا للنظافة! يبدو أنك قررت أن تصبحي مطيعة. قرار حكيم.

نظر راندولف إلى وجهها ولاحظ أن عينيها بالبكاء ثم قال:

- لا تحزني على حالتك لأني قد أجعلها أسوأ!

صاحت فيه غير آبهة بالعواقب:

- أسوأ؟ كيف يمكن أن تكون حالتي أسوأ من هذه؟

نظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة قبل أن يجيب:

- بإمكاني مثلاً أن أضربك يومياً.

امتقع وجهها وأطبقت قبضتيها غضباً، ثم قالت بصوت شبه هستيري:

- هذا قد يزيل رتابة العيش هنا على الأقل!

ضحك راندولف من كل قلبه فساهم ذلك في جعل وسامته تزيد أمام عينيها الحزينتين.

- أتريدين أن أتهم معتوهاً إذاً؟

- أكرهك. لا بد أن أنتقم منك يوماً أيها الـ...

قاطعها الغجري بضحكة فأكملت:

- سأقتلك إذا استطعت!

- أنا واثق أنك ستسرين كثيراً لو رأيتني ممدداً على الأرض أسبح في

بحر من الدماء.

دخل الغجري إلى المطبخ ليرى ماذا فعلت زوجته لتغير واقع الحال هناك. هز رأسه راضياً وقال:

- لا بأس، وإن كان بإمكانك أن تفعلي أحسن من ذلك بكثير.

ثم أردف بعد أن عاد إلى الغرفة الرئيسية:

- حدثيني وأخبريني عن حياتك، عن وظيفتك مثلاً.

- كنت أعمل في شركة، وعلى فكرة سيبدأ زملائي بالتحري عني قريباً.

- سأعالج هذا الموضوع بعد قليل يا عزيزتي. أما الآن فأخبريني عن نفسك.

نظرت إليه باستغراب فماذا يهم لمعرفة خصوصياتها؟ في أي حال هدأ غضبها وشعرت بالسرور لوجود أحد قربها تتبادل معه الحديث، وإن يكن هذا الأحد شخصاً تكرهه حتى الموت.

- أسكن في شقة في لندن.

استفسر الغجري وهو يتفحص أظافره الأنيقة التي يحرص جداً على نظافتها:

- تسكنين وحدك؟

كانت ليز قد أخبرته أن لا أقارب لها إلا ابن عم لم تر له وجهاً منذ ست سنوات.

- نعم أسكن وحدي.

أرادت أن تخترع له الأكاذيب لكن طبيعتها الطيبة لا تسمح لها بذلك. وإن كان الهدف من الكذب شريفاً. إضافة إلى ذلك، لا يمكنها أن تمرر شيئاً على هذا الغجري ذي العينين الماكرتين والنظرات النافذة القادرة على قراءة أفكارها. أخبرته عن صديقاتها اللذين لا بد سيقلقون عليها وسيأتون لإنقاذها كما قالت. لكن ذلك لم يؤثر في راندولف إطلاقاً بل تابع العناية بأظافره وكأنه يقوم بمهمة دقيقة

للغابة.
- أنت لست مضطرة إلى أحد على ما أعتقد وإلا لما جئت إلى هذه البلاد وحدك.
كانت فعلاً حمقاء عندما أطلعته على هذه الأشياء في الغابة. لكن رعبها كان شديداً إلى درجة أفقدتها السيطرة على لسانها.
تابع راتولف استجوابه:
- ما كان نوع عملك في الشركة؟
أطلعته لين على التفاصيل وعيناها ترقبان ثيابه. لقد أبدل ما كان يلبسه عندما خرج في الصباح، كما أن شعره يبدو مغسولاً. أين أمضى النهار ومن أين أتى بالثياب؟ أربما كان يملك بيتاً في الغابة حيث التقته أو في أي مكان آخر. هل يصح أن تسأله عن مكان وجوده طوال النهار؟ تخلت عن الفكرة بسرعة لأنه لن يطلعها على الأمر.
- ستحضر سيارتك إلى هنا يا عزيزتي فهي قد تكون مفيدة.
- أيها اللص! لا أشك في أنك سرقت الحصان أيضاً!
- حذار من اللعب بالنار! الزوجة الغجرية لا تكلم زوجها بهذه الطريقة لأنها تعتبره دائماً متفوقاً عليها.
- أما أنا أيها الغجري الساقط فاحتقرك وقومك أناساً منحطين!
هب راتولف من مقعده كلمح البصر وأمسكها بشعرها مسبباً لها ألماً عظيماً. لقد أوقعها لسانها في ورطة جديدة كانت بغنى عنها. ومن حسن الحظ أن طلبه اقتصر على الاعتذار فكان له ما أراد. لكنها تمكنت بذلك من التخلص من الضرب لا من العناق العنيف.
فلم تجد سبيلاً إلى حبس دموعها وإيقاف ارتعاشها.
أخيراً ابتعد عنها الغجري ووقف في وسط العربة صامتاً. ساد الجو سكون مطبق أنهاه راتولف بقبلة ناعمة طبعها على جبينها قبل أن يقول بصوت رقيق:
- لين، لماذا تدفعينني إلى معاملتك بهذه الطريقة؟
دهشت المرأة لهذا التبدل المفاجئ فأخذت تحدق في وجهه دون أن تفهم مراده. بعد ذلك عاد الرجل إلى طبيعته نادماً على ما بدر منه من

رقة فأمرها:
- حضري طعام العشاء!
جلس الزوجان إلى المائدة يتناولان العشاء بصمت قبل أن يفجر راتولف قنبلته الجديدة.
- ستكتبين إلى الشركة لتبلغي زملاءك أنك قررت الزواج...
قاطعته لين قائلة:
- أكتب! أتعتقد أنه بإمكانك إرغامي على الكتابة هكذا بكل بساطة؟
تمالك راتولف نفسه وحذرها:
- حاولي ألا تقاطعيني يا امرأة. ستكتبين الرسالة بدون نقاش.
تناول الشوكة وتثبت من نظافتها قبل أن يستعملها ثم أضاف:
- كما ستوجهين رسائل إلى جميع أصدقائك لتعلميهم بالأمر.
أسكتها بإشارة من يده إذ حاولت التعليق.
- لا تحاولي الاعتراض، ستنفذين أوامري بحذافيرها.
- ليس بوسعك أن تجبرني على ذلك!
أدركت لين أن في صوتها ضعفاً وتردداً لأنها كانت تعلم أن الطاعة هي السبيل الوحيد لتفادي العنف. وأن راتولف لا يقبل بأقل من الرضوخ والاستسلام. والدليل على ذلك أنه أخرج من جيبه بعض الأوراق وقلماً قال إنه سرقهما. فجلست الزوجة تكتب كما أمرها زوجها والغصة في حلقها تكاد تخنقها. سيستغرب زملاؤها وأصدقاؤها أمر الزواج لكنهم لن يجدوا سبباً لعدم تصديقه وسيتخلون عن البحث عنها. بعد أن انتهت خرج راتولف ليبعث بالرسائل في البريد.
أثناء غيابه دخلت لين إلى المطبخ تغسل الصحون ولكنها ما لبثت أن سمعت طرقاً خفيفاً على النافذة. نظرت لترى من الطارق ففوجئت لما رأت وجه كوليل وركضت لتفتح له.
قال الشاب بصوت لاهث:

- أحضرت لك القلم يا سيدتي.
- لا أعرف كيف أشكرك! عد عندما أستطيع لأسلمك الرسالة.

أقفلت ليزي النافذة بسرعة وخبأت القلم وهي تأمل أن يكون كونيل مصمماً فعلاً على مساعدتها، وتصلي لئلا يكتشف زوجها اللعبة.

غاب رادولف ساعتين قبل أن يعود حاملاً حقيبتها بعد أن سحب السيارة من الموقف كما وعد.

- افتحي الحقيبة الكبيرة.
- لماذا؟
- لا بد أن لديك قميص نوم جميلاً.

رمقها بنظرته الخبيثة وأضاف باللهجة الحادة التي تكرهها ليزي:

- افتحي الحقيبة!

أطاعت مرغمة وشرع رادولف في غربلة قمصان النوم إلى أن وقع اختياره على قميص أحمر شفاف.

- هذا ما سترتدينه الليلة.

تلقفا القميص لكنها رمته في وجهه فقال ساخراً:

- سأعتبر عملك دعوة لألبسك إياه بنفسي.

ضحك المصري طويلاً وهو يتفرج على زوجته تحمر خجلاً. لكن ليزي لم تجد هذه المرة في نظراته ما يخيف أو يثير بل تنامى في داخلها شعور مبهم تجاه هذا الرجل القاسي المتلذذ بعذابها.

- أعد القميص فأنا لن أرتديه مهما فعلت.
- لا يا زوجتي العزيزة، ستفعلين رغمك صاغرة.

اقترب رادولف منها فشعرت بحرارة عواطفه وحاولت دون جدوى الإفلات من رغباته.

٤ - مع ملك الغجر

في اليوم التالي خرج رادولف باكراً ليجلب لزوجته بعض الماء كي تغسل شعرها. عندما رجع قال لها بنبرته المتعالية:

- هيا اغسلي شعرك فالماء وفير.

نهرته ونفسها تجيش بالغضب:

- لا تكلمني بهذه الطريقة وكأني عبدة!
- وجدت الكلمة الصحيحة. أنت عبدتي.
- لا تعتبر نفسك سيدي! من تكون في أي حال؟ ربما كنت ملك الغجر لتعامل الناس بهذه الطريقة؟

أجاب ضاحكاً:

- حسناً أنا ملك الغجر!

يا له من مخلوق ساذج لا يترك فرصة للهزء منها.
- كلامك يعني بوضوح لي غلطة.
- ما الذي يجعلك تظنين أني ملك الغجر؟
ترددت لين في الاجابة لأنها لا تريد الاعتراف له بأنه يملك سطوة وجلالاً.
- انت مختلف بعض الشيء عن باقي قومك.
- مختلف؟
عاد الى ذاكرة لين، عندما تكلم رادولف، المشهد الذي جرحت فيه شعوره بكلمة قالتها. لا شك انه يحس بالشيء نفسه الآن، ولكن لماذا؟ أيخجل من كونه غجرياً؟
- نعم مختلف.
تجاهلت لين جرح الرجل مع أنها تكرهه ولكنه يبقى انساناً كغيره يجب احترام مشاعره.
- كيف يمكنك ان تقارني بيني وبين قومي وانت لم تتعرفي الى أحد منهم جيداً؟
- خلال اليومين الماضيين راقبتهم من النافذة وسمعتهم يتكلمون.
- أتعتبرين اليومين كافيين؟
- أشعر كأني أمضيت سنتين هنا لا يومين!
ابتسم رادولف فتساءلت لين اذا كان نسي الاهانة التي لاحظتها في صوته. لكنه من النوع الذي يستطيع كتم مشاعره بسهولة.
- ألن تسمحي لك لتغسلي شعرك؟
- لن استطيع غسل شعري في هذه الغسالة الصغيرة!
قطب رادولف جبينه وبدا مهتماً للأمر.
- ماذا تقترحين اذن؟
- هل بامكانك ان تحضر وعاء اكبر؟
- سأبحث عن واحد.

لا تعلم لين ما الذي دفعها الى طرح هذا السؤال القاسي، على زوجها:
- هل صحيح ان الغجر يهددون الناس بحلول اللعنة عليهم اذا لم يطعموهم ما يريدون؟
لم يزعج رادولف السؤال خلافاً لتوقعها.
- أتؤمنين حقاً بذلك؟
- لا، لكني أعرف كثيرين يخافون من لعنة الغجر.
وفيما هي تبحث في حقيبتها عن الشامبو أوقعت شيئاً على الارض. التقط رادولف الكتيب وفي عينيه اهتمام كبير لم تعلم المرأة سببه.
- من اين حصلت على هذا الكتيب؟
- من قصر السيد دوفي الذي زرته يوم التقيتك.
تكلمت لين عن ذلك اليوم كأن دهوراً مرت منذ ان تجولت في تلك الحدائق الرائعة.
لاحظت ان زوجها لم يتكلم فتابعت:
- حدائق القصر تفتح للزوار في بعض الأيام خلال فصل الصيف. لا بد ان مالك القصر مليونير.
غرقت لين في حلم أعاد اليها اللحظات السعيدة التي نعمت بها في ذلك اليوم وقارنت بينها وبين ما هي عليه الآن، هناك الحرية المطلقة وهنا السجن الرهيب.
تنهدت المرأة وزوجها ما يزال يحدق فيها بفضول.
- متى قمت بهذه الزيارة الممتعة؟
كان سؤال الغجري ملحاً الى درجة كبيرة. اذ يبدو ان معرفة موعد الزيارة أمر حيوي بالنسبة اليه. فأجابت لين وعيناها سارحتان في الحدائق الساحرة:
- يوم السبت الماضي.
قادتها ذكرى الحدائق الى التفكير بالفرار وتذكرت ان سبيلها

الوحيد الى الخلاص من المال الموجود في حقيبتها والذي ستشتري به كوبتيل ليساعدها على الافلات من قبضة خاطفها.

حاول راندولف استعادة تفاصيل ذلك اليوم وهو يتمتم:

- السبت الماضي...

أوضحت له لين:

- قبل ان تقوم باحتفالك بيوم واحد.

هزّ رأسه وهو يفكر عميقاً ثم سألها:

- ما رأيك بالحدائق؟

لم تفهم المرأة سبب سؤاله فاستوضحته:

- لماذا تسألني؟ هل تعرف الحدائق لتطلب رأيي فيها؟

بدا الغجري مستمتعاً بهذا الحديث فأجاب:

- نعم، زرتها عدة مرات.

مرة اخرى زلّ لسانها اذ قالت مستغربة:

- كيف سمحوا لك بالدخول؟

وضعت لين يدها على فمها لتمنع خروج المزيد من الكلمات الجارحة. ورأت عيني الغجري تلمعان سخطاً.

اقترب منها الرجل مهدداً:

- اوضحي سؤالك. أتعنين أن مستواي الوضيع لا يليق بمقام زوار تلك الحدائق؟

حاولت المرأة ان تخرج من المأزق فقالت:

- آسفة، اعتقدت أن...

- أن ماذا؟

مدّت لين ذراعيها متوسلة ومحاولة إيقاف غضبه.

- انا حقاً آسفة. ارجوك ان تنسى الموضوع.

انتظرت المرأة الشابة رداً عنيفاً من زوجها لكنه لم ينبس ببنت شفة. متى ينفجر ويعطي سجينته نصيبها من العقاب الذي تستحقه على هذه الاهانة؟ لكن كل ما فعله الرجل انه رمى الكتيب في الحقيبة

وخرج من العربة.

راقبت لين مشيته المتوازنة وجسمه الرشيق. لماذا لم تلاحظ فيه هذه الاشياء عندما قابلته المرة الاولى؟ لا شك ان الخطر الذي كان محدقاً بها آنذاك لم يسمح بذلك. فجل ما صبت اليه كان الافلات من قبضته، الامر الذي تحقق بفضل الفتاة الغجرية. من هي هذه الفتاة التي أطاعها راندولف فوراً؟ لا بد ان لها مكانة كبيرة في حياته كي ينفذ أوامرها وهو الرجل الصلب العنيد. لو لم تر المشهد بأم عينيها لما صدقت ان راندولف يخضع لامرأة غجرية كالحمل الوديع. ربما كانت الغجرية تعرف سرّاً لو فضحته لأوقعته في ورطة كبيرة. لكن هذه الفكرة مستبعدة لأنها لو صحت لما تجرأ راندولف على خطف فتاة والزواج من غيرها. أرادت لين ان تعرف حقيقة العلاقة بين زوجها والغجرية. لكنها تخاف من اثارة ذكرى اللقاء الاول كي لا يغضب راندولف وتسبب لنفسها ما لا تحمد عقباه. فلو كان الرجل يرغب في التحدث عن اللقاء لكان فعل ذلك بنفسه. لا بدّ انه يتناساه لأنه يخجل فعلاً من فعلته الدنيئة. عاد راندولف حاملاً وعاء اصفر كبيراً.

- هل يكفيك هذا؟

- بالطبع ولكن من المستغرب ان تزعج نفسك من أجلي.

- قلت لك يا لين انك لم تري الجانب الاسوأ مني بعد. وأقول الآن انك لم تري الجانب الحسن كذلك.

ادركت لين انه يجب عليها اكتشاف حقيقة هذا الرجل والتعرف الى شخصيته الغامضة اكثر. مع ذلك هزت كتفيها بعدم اكتراث لأن رغبتها في الفرار ربما تفوق فضولها في اكتشاف حسنات راندولف.

غسلت شعرها في المطبخ وعندما عادت الى الغرفة الجلوسية في العربة تخلى راندولف عن قراءة مجلة وقام بتولي مهمة تجفيف شعرها. شعرت لين بالدفء يغمرها لوجودها قرب زوجها الذي رمى المنشفة اخيراً وأخذ وجهها بيديه القويتين محدقاً في عينيها الزرقاوين. ارتعشت شفتاها وكادت أن تبدأ بالبكاء وهي تتذكر زيارتها الى

صالون الزين حيث كانت تمضي أوقاتاً مرحة تتحدث إلى صديقتها. . . لحظات بعيدة كأنها تنتمي إلى أزمنة غابرة لن ترى لين لها وجهاً بعد اليوم.

انتشلها صوت رادولف الرقيق من تأملاتها:

ـ كم انت جميلة يا لين.

طوقها بذراعيه وطبع على وجنتها قبلة طويلة. لم تقاومه لين لكنها وجدت الدموع تترقرق في عينيها.

ـ أزعجتك؟ لم اعد افعل الكثير!

ـ عناقي؟

ـ كل شيء! ألا تفهم اني لا يمكن ان اعيش سجينة طيلة حياتي؟

ابتعدت لين عنه وشعرها ينسدل بفوضى على كتفيها ودموعها ترسم خطوطاً بيضاء على وجهها الناعم.

اضافت بتوسل آملة في ان يرق الغجري لحالها:

ـ دعني اذهب. لا يمكن ان تحبسني في هذه العربة إلى الأبد. انت تعلم ان ذلك مستحيل.

أطرق رادولف يفكر فظنت لين انها تبحث في إثارة مشاعره الانسانية الراقدة في أعماق شخصيته الشريرة. في اي حال هو قال انها لم تر منه الجانب الأحسن بعد. فربما رأت هذا الجانب الآن.

تهاوت أحلامها عندما هز الرجل رأسه وأكد:

ـ انت زوجتي ومكانك معي. تزوجتني بارادتك. . .

ـ بارادتي! كيف تستطيع ان تقول ذلك؟

ـ لماذا لم تظهري أي اعتراض خلال اتمام مراسيم الزواج؟

رمقها بنظرة ماكرة وأجاب على سؤاله بنفسه:

ـ لأنك كنت تأملين بالفرار لو سمحوا لك خارج العربة، أليس كذلك؟

ـ بالطبع كنت آمل في الفرار. وهل تلومني على ذلك؟

ـ وهذه الآمال ما زالت موجودة على ما اعتقد.

تذكرت لين الشاب كونيل الذي أحضر لها قلباً. كما تذكرت المال

في حقيبتها وعرفت ان عليها اخفاؤه، لئلا يكتشف زوجها خطتها وتضيع جهودها ادراج الرياح.

اعترفت له بصراحة:

ـ انا أنتظر الفرصة المناسبة للهرب. واعتقد ان من يكون في موقعي يفعل الشيء نفسه.

تنهد رادولف طويلاً معترفاً بصعوبة موقفها. نظرت اليه زوجته بفضول. هنالك شيء عجيب في هذا الرجل وفي هذه القصة كلها. لربما استطاع كونيل ان يساعدها على حل اللغز المستعصي.

اقترب رادولف منها ووضع يده على كتفها محاولاً تهدئتها ومسح دموعها.

ـ ازعجتك دعني. . .

ضمها إلى صدره بحنان فأخذت ترتعش بقوة حتى تركها أخيراً دون ان تبدر منه اية حركة عنيفة. جل ما فعله كان اطلاق تنهيدة مثقلة بالهموم.

ـ سرحي شعرك قبل ان يتلف.

خبير حتى في أمور النساء غير الغجريات. فهؤلاء لا يكترثن لأمور التجميل فيتركن شعرهن على طبيعته فيزيد من مظهرهن بدائية ووحشية.

لا شك ان رادولف يعرف الكثير مما يتوجب عليه كغجري لا يهتم لما يجري في العالم المتحضر. فالغجر عادة يكونون منطوين على انفسهم، منكفئين دائماً في عالمهم الخاص.

سرحت لين شعرها تحت نظر زوجها وتساءلت عما يدور في خلده هذه اللحظات. ماذا يخبئ خلف هذه الملامح الرزينة الغامضة؟ ما هي النوايا الحقيقية خلف العينين السوداوين اللامعتين؟ أهو لمعان الذكاء أو الشر؟ ام لمعان الاثنين معاً؟

فجأة بدأت لين تبحث في ذاكرتها عن نقطة معينة غير واضحة تماماً. نظرت في المرآة إلى فمه وأدركت ان قبلاته صارت مختلفة عما

كانت عليه في لقائهما الأول. كانت قبلات مهينة بوقاحتها أما الآن فأصبحت رغم حرارتها، أكثر احساساً وانسانية! لماذا غابت الامارات السيئة عن وجهه في ذلك اللقاء. . . يبقى التفسير الوحيد لتبدل راندولف منذ أن حاول الاعتداء عليها هو أنها كانت ساعتها في حالة رعب شديد جعل رؤيتها للرجل مشوشة، وزاد خيالها في تصور شره وعدائيته.

قطع صوت راندولف حبل أفكارها:

- لماذا تفكرين؟ أرى على وجهك مشكلة مزعجة

- لنقل، مشكلة الغرب!

جزم الغجري ببرود:

- مشكلة لن تجدي لها حلاً. ولكني أرى شيئاً آخر في عينيك فما هو؟

أتقول له إنها تجده الآن مختلفاً، وبالتالي تذكره بالحادثة الأولى [illegible] العرض مرة؟ هزت كتفيها وكأن لا شيء يشغل بالها وتابعت تسريح شعرها.

كرر راندولف سؤاله:

- ما الأمر؟

- وهل أنا مجبرة على الاجابة؟

- بالطبع والا لما وجهت اليك السؤال.

نظرت اليه بتردد وقالت:

- قد لا يكون جوابي صادقاً.

- أنا أعرف بسهولة متى تكذبين علي.

ربما كان صحيحاً أن الغجر يملكون حاسة سادسة ويسبرون أغوار النفس البشرية كما يدعون.

- كنت في الحقيقة أستعيد ذكرى لقائنا الأول.

وأخيراً تجرأت على ذكر ما يتعلق بالحادثة الأولى. وكما توقعت تجهم وجه زوجها بسبب ذلك.

- من الأفضل أن تنسي اللقاء الأول.

لم تفهم لماذا يعتبر زوجها حادث السيارة تافهاً ويركز على الحادث الثاني في الغابة. ولا تفهم كذلك لماذا يغضب لذكر الحادثة الأولى مع أن لين هي الطرف المهان والمجروح.

قررت لين أن تكمل الحوار الذي بدأته.

- ولماذا أنساه؟

- لأني أحاول أن أنساه وإذا تحقق ذلك تحققت مصلحتك.

ملأتها كلماته حيرة وذهولاً فقالت:

- لا أعتقد أني فهمت قصدك.

- لنغير الموضوع يا لين!

من يسمع لهجته الآمرة يظنه سيداً يكلم خادمته مع أن الحقيقة قد تكون العكس في معظم الأحيان. فالغجر هم عادة الخدام وهم الوضعاء.

لم تأخذ لين بنصيحته وأصرت على اكمال الحديث:

- أريد نسيان الحادثة لأنك تخجل من نفسك!

- أخجل من نفسي؟

رفع حاجبيه تعجباً وأضاف:

أنت من يجب أن يخجل من نفسه

- ولكن. . .

- اخرسي ولا تجادلي!

خرست لين بالفعل واستأنفت تسريح شعرها دون أن تفهم موقف زوجها. قررت أخيراً صرف النظر عن مناقشة الموضوع لأن ذلك لن يفيدها بشيء.

- أريد أن أجفف شعري.

- ما رأيك بالخروج الى الشمس؟

- أفضل ذلك.

نهض راندولف من أريكته بكسل وعلى وجهه علامات الضجر.

قرب احتفاظه بالرشاقة رغم كسله وبطالته.

اتجها إلى الغابة تراقبهما نظرات النساء الغجريات الفضولية، لكن رادولف تفهم الموقف ولم يدع مجالاً لاختلاط زوجته ببقية قومه.

- أشعة الشمس قليلة هنا بسبب تشابك الأغصان. هلا اتجهنا صوب الطريق المكشوفة للشمس؟

ابتسم رادولف وقال:

- لا يا عزيزتي لن نتجه صوب الطريق.

- أتخشى محاولتي الفرار؟

- قد تقومين بمحاولة حمقاء.

- اعترف أنك معجب لأني سأحاول الهرب

- انت صريحة على الأقل.

- ماذا تعني بعلى الأقل؟

- أعني أن غطرستك وغرورك مثلاً يجعلانك تحتقرين الناس...

قاطعته لين:

- اذا كنت متغطرسة فماذا تكون أنت؟

اجابها برقة كوالد يؤنب طفله المشاغب:

- انا اعاملك بالمثل ليس إلا.

مرة جديدة سامحها رادولف على كلامها القاسي فشكرت ربها لأنها تفادت غضبه.

تابعا سيرهما بصمت تستغل لين فرصة وجودها خارج العربة لتشبع رئتيها هواء نقياً وعينيها بخضرة حالمة. كانت من وقت إلى آخر تسترق النظر إلى زوجها فترى التناقض بين ملامحه الراقية وكونه غجرياً. مشيته الجميلة يبدو نبيلاً وشعره الأشعث المتراخي يعوض ويرده إلى طبيعته الغجرية.

اختار رادولف لهذه النزهة وادياً صخرياً تحفه الأشجار لا أمل فيه لزوجته بأن تلتقي احداً يساعدها على الهرب.

قال رادولف وهو ينظر الى شعرها:

- باستطاعتنا العودة الآن.

أخذ خصلة ووضعها على خده قائلاً:

- يا للضفائر الجميلة!

لم تنفع معارضة لين لحركته بل زادت من حدة عناق رادولف.

- عليك ان تفهمي شيئاً يا لين. كوني طيعة معي تصبح حياتك ممتعة.

- أنا لا أتصور أية متعة في العيش إلى جانبك!

كانت لين تتمنى لو انه يمل منها ومن عنادها فيتركها تعود إلى بلادها.

عادا إلى العربة فأمرها رادولف بتحضير الطعام. وقفت لين ترمقه بنظرة تحد وهي تغلي من الغضب لمعاملته إياها كخادمة.

- لا اريد توجيه الأمر إليك مرتين لأنك تعرفين نتيجة ذلك يا حلوتي!

دخلت لين الى المطبخ دامعة لتحضّر الطعام الذي قد تكون السرقة طريقة حصول زوجها عليه.

- بالله عليك يا لين! انزعي حلة الحزن هذه عنك لئلا أحولها إلى حلة دامية!

على الرغم من الغيظ الذي خلف نبرته وجدت لين في كلامه نوعاً من السأم والتعب من هذا الوضع.

لم تحضر لين إلا طبقاً واحداً فسألها زوجها:

- أين طعامك؟

- لست جائعة.

- مع ذلك ستأكلين إكراماً لي. لأني لا أحب الجلوس إلى المائدة لوحدي.

- من تظن نفسك حتى ترغمني على الأكل؟ اشعر كأنك سيد إقطاعي يفعل بأتباعه ما يشاء!

تخلت لين عن المجادلة في النهاية فأحضرت طبقاً وجلست تأكل

وهم انفها.
- ارى ان دروسي في تعليمك الطاعة بدأت تثمر بالحلوى!
قالت لين بمرارة:
- السلطة والسيطرة توفران لك الرضى والسرور أليس كذلك؟
- أصبت، الا ان كل ما يقلقك يمتعني. واعدك بأن هذا العذاب
الحلو، لن ينتهي قريباً.
- النهاية؟ تكلمت عن نهاية العذاب!
- بالطبع فأنا لا أنوي ان أطيل العذاب اربعين او خمسين سنة.
ارتعدت لين للفكرة وتصورت نفسها تقضي حياتها في هذه
الغربة.
- اتمنى ان اموت قبل ذلك بكثير.
زال المرح والعبث من عيني رادولف وقال:
- طفلة رائعة مثلك يجب ان تستمتع بالحياة لا أن تتكلم عن الموت.
تخلت لين عن حذرها وانفجرت غاضبة:
- لا تتكلم كالأبله فأنت تدرك أن حياتي هنا جحيم مستمر!
وافق رادولف وقال ملمحاً الى شيء تجهله زوجته:
- حالياً فقط.
- حالياً وأبداً اذا استمريت في سجني.
- فلنغير الموضوع يا لين. اخبريني عنك فأنا لا اعلم كم تبلغين من
العمر مثلاً! تصوري ان زوجك لا يعرف عمرك.
- انا في الرابعة والعشرين، وانت؟
- تخطيت الثلاثين ببضعة شهور. اخبريني المزيد عنك، اخبريني
فأنا احب سماع صوتك.
- لا اعتقد انك تحب سماعه دائماً.
- من المؤسف انك تفسدين حلاوة صوتك احياناً بتصرفاتك
الرعناء.
استرسلت لين في الحديث واستمتع رادولف بالاطلاع على

تفاصيل حياتها.
- يبدو ان توماس هذا قال بعض الشيء.
- كيف عرفت ذلك؟
- من خلال حديثك عنه. نحن الغجر أذكياء يا عزيزتي!
- انا لم اقصد اظهاره غبياً.
- توماس ليس الرجل المناسب لك يا حبيبتي.
- انت مخطئ، في حكمك على توماس.
- توقعت ان تنكري ذلك. يا لك من شخصية شفافة يا لين اقرأها
بكل سهولة.
صبّت المرأة اهتمامها على طبقها لتفادي نظرات الاسرة فأكمل
الغجري الكلام:
- من المؤسف ان تكوني مصابة بعقدة التفوق حتى لا أقول جنون
العظمة. يجب ان تتعلمي ان جميع الناس سواسية وان المجتمع
الغجري ليس فاسداً لأنه يختلف عن مجتمعك. لا يجدر بك احتقار
الناس لمجرد اختلافهم. المجرم وحده حري بالاحتقار والنبذ.
كان صوته مختلفاً عنه الآن حتى ان لين وجدت فيه رنة موسيقية
كاللهجة الايرلندية. رغم انه يكون احياناً قاسياً فان لهجته تختلف
عن لهجة بقية الغجر. لم تفهم لين لماذا لم يعد يهمها ان تفهم ما دام
هدفها واضحاً: الهرب.
- لم يتهمني أحد من قبل بهذه العقدة التي تتحدث عنها
- لكنك اظهرت عقدتك للجميع
تبع ذلك صمت بارد وتشنج الجو بينهما. احست لين بأن الغجري
يكاد ينفجر غضباً وبالفعل قال لها بفظاظة:
- اذا اخطأتِ بعد اليوم سأترك جسمك بقعاً زرقاء!
اشاحت المرأة وجهها لئلا تواجه عينيه القادحتين شرراً
بعد قليل خرج رادولف فعادت لين الى وحدتها المملة رغم انها لا
تستسيغ صحبة زوجها، لكن وجوده أفضل من لا شيء.

استغلت فرصة غيابه لتخرج المال من حقيبتها وتخبئه وراء بعض المعلبات في خزانة المطبخ. ثم انصرفت لكتابة رسالة قصيرة إلى الشاب الغجري كونيل تعده فيها بمكافأة مالية فورية وأخرى ترسلها له بعد فرارها على عنوان يحدده لها. قررت لين أن تمنحه كل ما ادخرته خلال عملها فهي مستعدة للتضحية بكل شيء لقاء خروجها من هذا النفق المظلم. لن يستطيع كونيل مقاومة اغراء العرض وسيدبّر طريقة لتهريبها في أول فرصة تسنح له.

بعد الانتهاء من الكتابة جلست المرأة الشابة على طرف السرير تقضي الساعات في التفكير بمتاعبها وتتخيل نفسها حرة طليقة إلى أن غلبها النعاس أخيراً وتسلل النوم إلى عينيها.

٥ - الحلم يموت في مهده

أفاقت لين، والظلام الدامس يلف العربة، على صوت الغجر يغنون ويرقصون حول نار كبيرة اشعلت في وسط المخيم. ولم تستطع إلا أن تستعيد ذكريات حياتها الهادئة في انكلترا ووظيفتها المحترمة في شركة الهندسة الزراعية. ساهم ذلك في زيادة توترها إلى درجة خافت معها أن تفقد صوابها يوماً إذا استمرت على هذه الحال. ماذا سيحكي رادولف من وجود امرأة غجرية معه؟ لو يدرك ويعلم أن كليهما خاسران لأطلق سراحها فوراً!

فجأة سمعت طرقاً خفيفاً على النافذة فهبت من سريرها وأزاحت الستائر بسرعة.

- كونيل!

تكلّم الشاب بصوت هامس:
- اخفضي صوتك لئلا يسمعنا أحد!
لكن الإثارة والقلق جرداها من كل خوف وحذر.
- لا تقلق. الكل مشغولون عني الآن.
- هل كتبت الرسالة؟
هزت لين رأسها وأحضرت له الورقة.
- ارميها انت يا كوتيل ولا تدع احداً يراك.
- علي الذهاب الآن. طابت ليلتك.
- شكراً جزيلاً يا كوتيل على ما تفعله من اجلي.
قال الشاب قبل ان يختفي في الظلام:
- لا اعلم ما اذا كنت قادراً على مساعدتك، لكني سأبذل جهدي.

خافت لين من ان يكون احد شاهد كوتيل يتحدث اليها خصوصاً وان النار تسللت الى العربة تغشي لونها الرمادي الحزين ببريق قرمزي. أجالت نظرها في الخارج لترى ما اذا كان زوجها يراقب المشهد ويستعد للانقضاض من جديد على فريسته الضعيفة. لكن كل شيء كان هادئاً ولم يبد أثر لإنسان حول العربة.

بعد نصف ساعة عاد رادولف الى المنزل الزوجي، من دون ان تظهر على وجهه علامات تفيد أنه علم بما حصل. أضاء المصباح الخفيف بعد ان رأى ان زوجته غير نائمة.
- لماذا تجلسين في الظلام؟ أتريدين ان تعذبي نفسك؟
- ولماذا تهتم بعذابي؟
- في الحقيقة انا لا أهتم بعذابك.
وأضاف بنبرته الخشنة:
- ماذا فعلت في غيابي؟
- لا شيء!
توجه رادولف نحو المطبخ وسأل زوجته:

- أتريدين بعض الشاي؟
- كلا.
- لا بد انك شربت فنجاناً الآن؟
- لا.
سمعته لين يتنهد تعباً وهو يعد الشاي وتساءلت لماذا لم يطلب منها ان تحضره بنفسها.
عاد بعد قليل يحمل فنجانه فسألته باصرار:
- أين كنت طوال هذا الوقت؟

توقعت لين جواباً قاسياً يشعل مشادة جديدة. لكنها فوجئت بزوجها يرمقها بنظرة ناعمة مليئة بالحنان. هي قصدت من سؤالها اشعال غضب لتغلبه لكنه خيب أملها بهدوئه.

جلس على كنبة يحتسي شرابه الساخن ويراقب زوجته بنظرة لا مبالية:
- أريد ان أراك غداً بثياب جديدة.
افرغت لين دفعة واحدة كل الغضب الذي جمعته في وجدانها وقالت:
- سأرتدي ما يحلو لي.
- لا تحاولي الظهور بمظهر المرأة الشريرة. سترتدين شيئاً مما احضرت معك لتمضية العطلة المتعة. تاهت عيناها في حقيبتيها المقفلتين على بعض من ذكريات، قريبة كالوقت بعيدة كالحلم. كيف تضع ثيابها الانيقة في خزانة العربة القذرة؟

ليس من المعقول ان تكون هذه العربة ملكاً لرادولف فهو يبدو محباً للنظافة والترتيب. ثم انه لا يحتفظ فيها بثيابه او بممتلكات اخرى. لغزه حول خصوصياته يحيرها كثيراً ولكنها لا ترغب في الاطلاع على خفايا حياته لأن قواها منصبة الآن على هدف وحيد: الفرار.
قالت لزوجها بعد تردد:
- لا أرى معنى لارتدائي ثياباً جميلة وبقائي سجينة هذه الزنزانة!

- لن تبقي هنا لأننا سننتقل غداً بسيارتك الى مكان آخر.

أحست لين ان قلبها توقف عن الخفقان لأن الآمال التي علقتها على مساعدة كونتل انهارت بلحظة.

- ألن يرحل الباقون؟

- لا. نحن فقط.

كانت لين بحضورها تفضح كل شيء.

- لا اريد ان أغادر المخيم.

صمت راندولف لملاحظتها واخذ ينظر اليها دون ان يفهم.

- وهل تستطيعين البقاء هنا الى هذا الحد؟ مع انك لم تكفي عن التذمر من الضجر.

عضت لين على شفتها لتحاول ايجاد جواب لا يفضحها. واستطاعت بعد جهد ان تقول:

- المكان الذي سنذهب اليه لن يكون احسن من هنا. وأنا لا اهوى الغيبة ولي بالتنقل الدائم كالغجر المشردين.

لم تأبه المرأة لغضب زوجها من كلامها لان عقلها كان مشغولاً بفرصة الهرب الضائعة. ظنت ان الفرج سيأتيها اخيرا على يد كونتل لكنها وجدت نفسها كالقابض على الماء، تعود الى نقطة الصفر.

برغم كل شيء، حافظ الغجري على هدوئه ولم يظهر انفعاله لنعت زوجته قومه بالمشردين.

- لا تحاولي الاعتراض لأني مضطر لمغادرة المخيم.

تساءلت لين عما يمكن ان يكون سبب هذا الاضطرار.

- ولماذا تكون مضطراً للرحيل؟

- لا ضرورة لأن تعرفي.

- وهل سنجد حرية شاعرة في المخيم الذي سنقصده؟

- بالطبع. ألست ملك الغجر كما قلت يا عزيزتي؟ والرعية لن تدخر جهداً لتوفر مكان اقامة مريحا لملكها.

احلمت لين بهروب الحرية وهي تفكر بالمخيم الجديد والعربة

الجديدة القذرة، والمزيد من هؤلاء الناس السمر الفضوليين. سجن جديد وحراس جدد يرصدون تحركاتها عندما يكون زوجها غائباً.

وفجأة انهارت اعصابها وصرخت:

- لا استطيع تحمل المزيد! لا استطيع البقاء سجينة. سيقتلني الضجر!

واضافت وهي تحدق في راندولف:

- كيف تستطيعون تمضية أيامكم بكسل؟ ألا تملون من عدم الحركة؟

وضع الغجري فنجانه على الطاولة ونهض من كرسيه دون ان يظهر عليه اي انفعال مما زاد من حيرة لين التي قالت:

- هناك لغز في حياتك! هناك شيء خفي! الى اين تذهب كل يوم فأنت ولا شك لا تبقى في المخيم؟

أزاح الغجري وجهه وكأن ملاحظتها احرجته فاستغلت لين الفرصة وتابعت بالحاح شديد:

- اريد ان اعرف كل شيء! انت تذكرني باستمرار اني زوجتك. في هذه الحال يحق لي ان اعرف اين وكيف يمضي زوجي اوقاته؟

لم تفهم لين سبب اصرارها وشوقها لمعرفة المزيد عن هذا الغجري الغامض. ربما كان شعورها بالفراغ سبب هذا الفضول الكبير أو انها بحاجة الى شيء يشغلها ويجعلها تشترك بشكل أو بآخر في حياة مجتمعها الجديد. لكن راندولف لم يشبع فضولها اذ اكتفى بالقول:

- انت لم تعتبري نفسك زوجتي حتى الآن. عندما تعتبرين اننا متساويان ستعرفين كل شيء. لكن ما دمت تعتقدين انك متفوقة علي لأني غجري فلن أطلعك على الحقيقة.

كل شيء في هذا الرجل يزيد من اللغز غموضاً: جسمه الرشيق، مشيته المتعالية، كبرياؤه، وسطوته، ثقته المفرطة بنفسه. ومرة جديدة قالت لين في نفسها: لو لم اكن اعلم انه غجري لما صدقت ابدا انه

كذلك. عندما فكرت بالآلاف وبتحريكه عن وضع رادولف الخاص، فتلك الكلمة انطبعت في مخيلة لين وجعلتها تظن ان زوجها هو ملك الغجر. هو ليس بالطبع ملك الغجر لكنه يتميز عنهم بشيء ما . . .

لما نظر اليها رأت المرأة في عينيه مرارة كبيرة كأنه يطلب منها ان تفهمه وتساعده على تخطي مشكلة لم تستطع بعد ادراكها ومعرفة القصد منها.

اجابت لين أخيراً على اقتراح رادولف باعتبار نفسها في مستواه:

ـ لن اعتبر نفسي ابدا في مستواك.

أعوز كلماتها الثقة والتصميم لأنها لم ترد التسبب في المزيد من الاهانة لهذا الرجل. ولأنها لم ترد توسيع شقة الخلاف بينهما أكثر. وهو قادر في جميع الأحوال على تقليص هذا الفارق والطغي، بينما عندما يتشاطران بعد قليل السرير نفسه حيث يمارس سلطاته المطلقة بدون ان تحاول المرأة المسكينة ابداء أي اعتراض.

هزّ الغجري رأسه وقال:

ـ في هذه الحالة لن تعرفي عني أكثر مما تعرفين.

انقلب السحر على الساحر وشعرت لين انها ذليلة عاجزة امام نبرته المتغطرسة. فتمنت لو تستطيع ايجاد الكلمات اللاذعة لترد له الاهانة لكنها فشلت.

ـ الى اين سنذهب؟ أعني اين يقع المخيم الذي تحدثت عنه؟

اكتفى الرجل بالقول:

ـ في مكان بعيد جدا

ـ ولكن ماذا ستفعل بالحصان؟ لا يمكنك اصطحابه اذا كنا سنستعمل السيارة.

كان رد رادولف هادئاً وعاديا جدا:

ـ بما اني سرقته سأعمل على رده الى اصحابه.

ـ لا ضرورة لأن تستغل كل فرصة تسنح لك لتسخر مني.

ـ ولكنك افترضت اني سرقته، أليس كذلك؟

ـ ولماذا لا تقول لي من أين حصلت عليه؟ فأنت توافق معي على انك لست قادرا ماديا على امتلاك مثل هذا الحيوان الرائع.

كل كلمة، كل حركة، كل دقيقة لم كانت تزيد من غموض اللغز وصعوبته بالنسبة الى المرأة. ما السبيل الى اكتشاف الحقيقة وازاحة الستار عن الجوانب الخفية في حياة الغجري؟ قد يكون الوقت كفيلا بذلك. . . وقد لا يكون.

استوضح رادولف زوجته:

ـ لم أفهم تماما معنى كلامك.

ـ بصراحة، أعني ان مظهرك لا يوحي بأن هذا الحصان الأصيل ملك لك.

كانت الاهانة الجديدة أقوى من ان يتحملها الرجل. فعندما تكلم بدا فاقداً تماما سيطرته على اعصابه، بسبب الحقد.

ـ لا بد ان يقودك لسانك يوما الى مهلك لا نجاة منه.

وجدت لين نفسها تعتذر على الفور منه وحاولت تغيير وجهة الحديث.

ـ آسفة لاني اسأت التعبير. الن تخبرني من أين حصلت على الحصان؟ انه حصان أصيل ان لم اكن مخطئة.

ـ من أين لك هذه المعلومات عن الجياد؟

ـ انا لا اعرف الشيء الكثير لكني رأيت مثله عندما كنت أمارس الفروسية لبضع سنوات خلت.

بدل ان يجيب على تساؤلها حمل رادولف فنجانه الى المطبخ ولما عاد بدأ يخلع ملابسه.

ـ حان وقت النوم لاننا سننهض باكراً في الغد.

سارعت لين الى تبديل ملابسها فيما زوجها منشغل بالبحث عن صحيفة أحضرها، والقراءة ليست بالطبع عادة غجرية، حتى لا تضطر الى فعل ذلك امام عينيه الفضوليتين والساعيتين الى التمتع بجمال قدها.

تصرف رادولف بعد ان وجد صحيفته الى التفتيش في حقيبة زوجته حتى وجد فستاناً قطنياً أزرق مفتوحاً عند الصدر.

- سترتدين هذا الفستان غداً لأنه يبرز جمالك بسخاء.

تناولت المرأة الفستان من يد زوجها ورمت به على الأرض رافضة فكرة فرضه ارتداء الملابس عليها. ولكن رادولف لم يستسلم لهذه المرأة. بل أمسك بشعرها وصفعها على وجهها بعنف حتى كاد يرميها أرضاً. ولم يتوقف عن ضربها حتى تعب وزرق عليه منها. وقفت المرأة أمامه ترتعش والدموع تختلط مع الخصلات السوداء المتراخية على وجهها المتورم. هذه أول مرة تمتد يد اليها وتتحمل بثقل هذه القسوة. فهي لم تتعرض في حياتها التجربة مع جلاد كالغجري رادولف.

- البسي الثوب!

أطاعت لين أمره ودفنت وجهها في الثوب تخوله تجري لدموعها الغزيرة. ثم صرخت بصوت مخنوق:

- لن أستطيع المتابعة! لن أستطيع الصمود... سأنتحر!

فوجئ الرجل لهذا التهديد ووقف يحدق في زوجته لحظات طويلة قبل ان يضمها بحنان الى صدره ويقول بكل ما لديه من رقة:

- لماذا تغضبيني يا عزيزتي وترغميني على استعمال العنف؟

أضاف وهو يتحسس بيده القوية وجنتيها الملتهبتين:

- لو كنت تتصرفين بروية...

توقف مطولاً بهذه جسمها المنتفض ألماً وحزناً ثم تابع:

- على المرء ان يكون حذراً عند ما يتعامل مع غجري.

تم عدة كلمات اخرى حتى تلين الآن من بينها: الغائب الأسرار في... أسندت رأسها بصدره العريض الضعيف تودعه همومها وأحزانها وتصغي الى دقات قلبه المطمئنة ورتابة تنفسه العميق. بدأ اضطرابها يزول وهدأت بعد ان اطلقت تنهيدة طويلة وسمعت زوجها يهمس:

- هذا الفستان يكثير يا حلوتي. لا أريد بعد الآن ان أرى الدموع على وجهك الجميل.

تمكنت المرأة أخيراً من رفع عينيها الرطبتين الى وجه زوجها وابتسمت بعد ان علمت انها ترتاح كثيراً الى الوجود بين ذراعيه القويتين، وتمنت لو يبقيان هكذا الى الأبد:

- انت مختلف... يا ليتك تظل كما كنت الآن...

أمر لا يصدق! كيف تسر لين لوجودها في أحضان هذا الرجل الذي لا تكف تأبه من التفكير في كيفية الافلات من يده؟ لماذا لم تنفر هذه المرة من لمساته؟ لماذا لم تكف من تحمل قبلاته؟

أضافت والكلمات تسبقها:

- لماذا انت مختلف؟

بدا على رادولف كأنه يقبل بهذه الحقيقة ولكنه لا يقوى على ان يصرح بالسبب لأن هناك أمراً خطيراً يمنعه من ذلك. أربما كان أمراً يتعلق بالماضي وله تأثيره على المستقبل.

- لا أستطيع يا عزيزتي ان اشرح تلك الحقيقة...

ابتعد عنها وزاد:

- هيا الى النوم يا حلوتي.

وقفت لين مشدوهة وهي تشاهد زوجها يتوجه الى المطبخ ليحضر بعض الماء. واستعرضت الشعل العميق الذي احدثه تهديدها بالانتحار في هذا الغجري الغريب. لم تعد تأبه بالآلام التي سببها لها بل انحصر تفكيرها في التوصل الى كنه نفسه وكشف حقيقته.

عندما عاد رادولف الى الغرفة أخذ يتأمل بلين واقفة بقميص نومها الأحمر ويتأمل جمالها الصارخ من رأسها حتى أخمص قدميها، ولاحظت الزوجة الحائرة العروق في عنقه تنبض بعصبية وصدره المغطى بشعر أسود كثيف يسرع في الصعود والهبوط. يا لتناسق لون عينيه مع لون بشرته ولون شعره! ان رادولف في الحقيقة يطمح رجولة تجعله حلم كل امرأة... بشرط ان تنتفي منه واحدة: كونه غجرياً.

وعندما التفتت عينا الغجري الى وجهها حيث ما زالت آثار الصفعات واضحة، ظهر عليه الأسف والندم الشديدان على استعماله العنف. فاذا كما تمنت لين على استعمالها الطريقة نفسها في الغابة. اقترب منها وأخذ رأسها بكلتا يديه عاقلا الاعتذار لأنه ولا بد مدرك انه اخطأ بصفعها بينما هي لا تشاطره الشعور ذاته، لأنها لا تزال مصرة في نفسها على انها كانت محقة في استعمال السوط لتدرأ خطر الاعتداء عنها. فكت لين بين ذراعيه ورأسها غارق في صدره الوسيع تذوق للمرة الاولى طعم الراحة في قربه وراحتها النفسية هذه، واحس بقلبها خاليا من الحقد والمرارة. أيكون العنف جردها من مشاعرها وأصبحت دمية تكره لا تنفعل ولا تشعر؟ أم تكون العادة سلبتها طعم الحياة فلم تعد تهتم لما يصيبها؟ أم هو الاستسلام فقد اقنعها بأن المقاومة لن تحقق الا المزيد من العذاب والقساوة من رادولف؟ الشيء الوحيد الذي تدركه في هذه اللحظة هو الارتياح لأن كل شيء بسلام أو شبه سلام . . . وذلك بفضل تفهم رادولف لوضعها واكتفائه بطبع قبلة خاطفة على جبينها.

أمضى الزوجان الشابان معظم النهار في السيارة يتجهان الى حيث تجهل لين. لفتها بالطقس الجميل وساعات الشمس الدافئة بإزالة حاجز العداء بين لين وزوجها، كما سرت المرأة لوجودها بعيدة في سيارتها عن اي من مظاهر الحياة الغجرية التي كرهتها والتي اسقط واقعها الى احلاماً شاعرية بنتها لها قصص الادباء وعصرنها أخيلة الشعراء.

لا تستطيع المرأة الانكليزية المعتادة على صخب الحياة ان تحيا هكذا وبدون هدف كنبتة طفيلية تعيش على جهد غيرها. لا بد لها من هدف واضح في حياتها تصبو اليه وتعمل على تحقيقه. فالطريق ان لم يفض الى مكان ليس طريقاً. وقطار الحياة ان لم يقصد محطة ما يصير عربة معطلة.

هدف لين في الحياة ليس معجزاً، فجل ما تريده ان يكون لها منزل

هادئ، تعيش فيه بطمأنينة مع عائلة يسود وشائجها الحب ويجمع أفرادها الحنان. والحياة مع رادولف في عربة قذرة الكسار خلتها وسحق للطموح.

كم كان كويل مهماً بالنسبة اليها وكم أحست بالخيبة لأنها ابتعدت عنه! كان حلماً خرج من العدم ليخصب ارضا جديدة. فاذا بيد رادولف القدر لتسحق الحلم وتحول الى الهد وترمي بلين في مكان جديد لا تعلم ماذا ينتظرها فيه سوى مزيد من الوحدة والقلق. لكن ما ابقى في نفسها اثرا من أمل هو تلميح رادولف الى امكانية العودة الى المخيم نفسه في يوم قد لا يكون بعيداً.

لاحظت لين، الغارقة في المقعد الوثير، ان رادولف لا يلاقي أية صعوبة في القيادة مع ان الغجر لا يحبذون عادة قيادة السيارات مفضلين وسيلتهم القديمة للتنقل: الحصان.

انتبه رادولف ان زوجته لم تكف عن مراقبته طوال الطريق فنظر اليها وسألها:

- بماذا تفكرين؟ أراك شاردة في أمر مهم.
- في الحقيقة كنت اراقب طريقة قيادتك فأنت سائق ماهر على ما أرى.
- العادة كفيلة بتعليم المرء كل شيء.
- صحيح، لكني اعرف انك معتاد على ركوب الخيل خصوصا وانك قلت مرة انك تستعمل الجياد لا السيارات.

كانت لين تشير بكلامها الى جملة قالها رادولف عندما التقيا للمرة الاولى قرب سيارتها المعطلة. حاول الغجري ان يتذكر ذلك ثم هز رأسه نافيا.

- لا بد انك واهمة فأنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل.
- أنسيت ما قلته في لقائنا الاول؟
- نحن لم نتبادل كلاما يذكر في لقائنا الاول. يبدو ان مخيلتك واسعة يا عزيزتي!

أيّاها حدسها ان راندولف يتحدث عن اللقاء الثاني عندما اختطفها على أثر ضربة السوط. أثار حنقها عدم اكتراثه الدائم بالحادثة الأولى وتركيزه على الثانية وكأن لين ارتكبت بوجها جريمة لا تغتفر تحت أثار فعلته الشنعة.

بعد ما جرى في الأمس تحول راندولف بسرعة من رجل شرس الطباع، عصبي المزاج الى انسان عادي، لا تثور أعصابه لمجرد سماعه كلمة كما كان يفعل في السابق. تذكرت المرأة ما قاله البارحة، خصوصاً الجملة التي أدهشتها ولم تفهم منها سوى: الجانب الأسوأ مني... لا شك في ان هذه الكلمات أحرجة تفسري لأن الشجري كان صادقاً عندما تفوه بها كأنه يدلي باعترافات خطيرة يحاول جاهدا ابقاءها دفينة أعماقه، لاعباً دور الرجل الشرير الساخر من القيم... أهو مصاب بالفصام في شخصيته يتصارع فيها الخير والشر بعنف يجعله متقلباً من ساعة الى أخرى؟ أيحاول الجانب الخير الانتصار على الجانب الشرير والافلات من براثن الغرائز البدائية؟ ان هذا الصراع ينعكس على لين بشكل دراماتيكي يجعلها رهينة مزاج زوجها المتقلب... ما حدث البارحة يعزز اعتقاد لين. فراندولف هدأ بعد ان انفجر بشدة وطغى عليه جانبه الحسن بعد ان بدا نادماً على ما فعله بها. حاول التكفير عن ذنبه بملاطفتها وتطييب خاطرها وعندما أفاق في الصباح نظف الفستان الذي رمته لين على الأرض، ثم أحضره لها وألبسها اياه بكل رقة ونعومة.

مراع خضراء على امتداد النظر رافقتها في تجوالها. وعبر سهوله هضاب واسعة مغطاة بأشجار خضراء عالية تهمس في اذن السماء الصافية أشعاراً وألحاناً. أوقف راندولف السيارة في مكان أخضر فسيح في منطقة تدعى كيلارني. وسار العروسان الى بقعة منعزلة فيها بحيرة جميلة تقع على سفح جبل عال.

كانت الدهشة تعقد لسان لين فأخذت تجيل الطرف في هذه الجنة الرائعة تغرف من جمالها وبرائحها فيفيض الهناء في نفسها علوية

وصفاء.

- ما أجمل هذا المكان! كيف تعرفت اليه؟

أجاب راندولف:

- انا أعرف ايرلندا كلها.

شع في عيني المرأة الشابة بريق وارتسمت على شفتيها ابتسامة وأحست بنفسها تسبح في بحر من الاحلام. شعرت بالدفء يغمرها عندما طوقها راندولف بذراعيه... ليته يكرر كلمات الأمس بوضوح لتعرف المزيد عنه وترتاح...

- تعالي، علينا ألا نضيع المزيد من الوقت!

نظرت اليه بحيرة وقالت:

- قل على الأقل الى أين.

- ستعرفين عندما نصل.

- لن أعرف شيئاً هكذا ضائعة.

ضحك راندولف وقال:

- نحن في كيلارني وهذا الجبل يدعى الجبل القرمزي.

- لم يفدني شرحك كثيراً.

- أيهمك الى هذا الحد الاطلاع على التفاصيل الجغرافية؟

- في الحقيقة، لا.

عاد راندولف بسرعة الى السيارة وجلب سلة مليئة بالطعام. وأبلغ زوجته كالعادة انه سرق السلة ومحتوياتها من أحد المتاجر. لكن المرأة لم تقتنع بكلامه.

- أنت لم تسرق شيئاً؟

- أتحاولين تبرئة نفسك من وجودك مع زوج لص لا يعرف الا السرقة وسيلة لكسب الرزق؟

أصاب راندولف بسؤاله لأن لين كانت تكره فكرة كونه لصاً. أرادته رجلاً شريفاً يحصل على لقمة عيشه بعرق جبينه... ولكن

لماذا تجد نفسها مهتمة بسلوكه؟ ما الفارق في أن يكون رالف لصاً أو رجلاً شريفاً ما دامت ستهرب منه يوماً وتسترجع حريتها الغالية؟

٦ - السجن الجديد

أخذت لين تتساءل عما إذا كان ممكناً ألا يكون رالف قد سرق كل هذه الأغراض. فمن أين أتى بالصحون والسكاكين والملاعق خصوصاً وأنها من الصنف الغالي؟ لا بد أنه يتعاطى سرقة مثل هذه الأشياء لإعادة بيعها إلى تاجر شريك بأسعار زهيدة.

سألته فيما هو مشغول بتحضير الموقد:

- بماذا يمكنني مساعدتك؟
- هلا أحضرت الأطباق ووضعتها على الشرشف؟
- حسناً.

تابعت لين وهي ترى الأطعمة المختلفة في السلة:

- من أين جلبت كل هذا؟

جاء جوابه ساخراً كما توقعت:

- السرقة وسيلتي المفضلة لا بل الوحيدة!

تنهدت المرأة وأقرّت بأن استمرارها في طرح هذه الأسئلة يعني استمرار تلقيها مثل هذه الأجوبة. لكنها لم تترك كلماته تمر دون تعليق فقالت:

- توقعت ان تكون فعلت ذلك ولكن من أين سرقت هذه الأغراض؟

عندما ضحك الغجري وبانت أسنانه الناصعة، شعرت لين بقلبها يخفق بقوة. وحاولت ان تكتم اعجابها المتزايد بزوجها الوسيم.

- أغَرْتُ في الليل على مطعم قريب من المخيم، لقد كانت مهمة غاية في السهولة!

- لا تختلق الأكاذيب. لا يوجد أي مطعم بالقرب من المخيم!

- انت مخطئة يا عزيزتي لانك لا تعرفين المنطقة كما أعرفها.

برغم دقة الموضوع ساد الحوار جو لطيف. وكان الزوجان كأي عروسين سعيدين يتبادلان أطراف حديث عذب ومرح. وحرصت لين جاهدة على عدم اثارة رادولف لئلا يعود الى مزاجه الشرس ويفسد هذا اليوم الجميل.

سألته بصوتها الرقيق:

- هل سرقت القلادة كذلك؟

ابتسم رادولف وهو يشعل النار ثم أجاب:

- نعم ولكن سرقتها كانت صعبة وكادت تودي بي الى السجن، فقد أوقعتها على قدمي ولم أتمكن من العدو بسرعة حتى كاد رجل الشرطة يلحق بي... لكن حيلتي كانت أقوى واستطعت الافلات بعد أن اختبأت وراء سور عال.

أضاف وهو يضع شرائح لحم العجل في المقلاة:

- افعل أي شيء، كي لا أعود الى السجن الآن من تجربه مرة يملك

المستحيل لئلا يعيد الكرة.

لم تعلق لين على كلام زوجها لأنها كانت محتارة في تصديقه أولاً، بل انصرفت الى المساعدة في اعداد الطعام. وعندما اكتشفت علبة مليئة بمختلف انواع الفاكهة قالت:

- لا استطيع ان اتصور كيف جلبت كل هذا؟... لا، لا تقل شيئاً عن السرقة. لقد توصلت الى واقعة ثابتة وهي أن في تصرفاتك وطريقة عيشك اشياء لا علاقة لها بانتمائك الغجري. انت... أنت مختلف. تردد رادولف طويلاً قبل أن يتحسس جرحه ويتكلم:

- ولكنك قلت اني غجري متشرد، حثالة المجتمع

مد يده السمراء القوية وأضاف:

- الا ترين سحري الغجرية؟ ولماذا تهتمين بأموري ما دمت مصممة على الهرب؟

رمقها بنظرة فضول ألف معنى ومعنى وأكمل:

- لو كنت تودين مشاطرتي الحياة لكانت الأمور بيننا مختلفة.

لم تفهم المرأة سبب اهتمامها البالغ بأسرار حياة هذا الرجل. ولكنها أدركت الآن بشكل لا يقبل الجدل ان رادولف يرغب ببقائها معه الى الأبد!

لماذا تعتقد ان رادولف سيسأم منها يوماً ويطلق سراحها؟ لماذا ظنت انه كغيره من الغجر لا يستقر مع امرأة واحدة بل يبحث دائماً عن صبية تؤمن له دفء الحب وحرارة العاطفة؟ فهذا النوع من الرجال لا يرى في المرأة الا جانب المتعة والعبث دون ان يفكر في الأمور الأخرى السامية كبناء العائلة وتربية الأولاد...

غريب كم ان رادولف مختلف بجانب من طباعه عن عوائد الرجال من قومه!

بادر الغجري الى السؤال:

- أما زلت مصممة على الفرار؟

أجابت المرأة بكل عزم:

- بالطبع، وماذا تتوقع مني غير ذلك؟

أشاح رادولف بوجهه كي لا تظهر انفعالاته وصرح بصوت مرتجف بعض الشيء:

- رغم البداية السيئة يمكننا أن نعيش معاً حياة جميلة.

توقف ليستجمع أفكاره ثم أضاف:

- اليوم مثلاً سار كل شيء على ما يرام.

- لا أعتقد أن يوما واحدا من التفاهم يكفي لبناء حياة مشتركة.

- كل طريق تبدأ بالخطوة الأولى. فلنعتبر اليوم خطوة أولى ومثالا نحتذيه في تصرفاتنا.

لم تصدق ليزي أن هذا الرجل الذي يتكلم أمامها هو رادولف. أين التعالي والغطرسة في صوته؟ أين نظراته الساخرة ونبرته المتهكمة؟ من عادة رادولف اعطاء الأوامر وويل لمن لا ينفذ. لكنه الآن يطلب من زوجته العيش معه لا بل هو يتوسل اليها؟

- اسمع يا رادولف، أنا لا أنوي أن أمضي حياتي متنقلة من مكان الى آخر لأني أحب الاستقرار. أضف الى ذلك اني لست مغرمة بك وتبعا لذلك يبدو طلبك غير قابل للاستجابة.

لم يعلق الغجري على رفضها بشيء، بل غير الموضوع وانصرف الى الأكل بعد أن ملأ طبقا لزوجته وصب لها بعض الشاي. جلس الزوجان بعد الأكل يتأملان مياه البحيرة الرقراقة والشمس تغمر المكان بدفئها وطنين النحل يملأ الجو بهجة وفرحاً.

ماذا يطلب الانسان أكثر من ذلك ليكون مسروراً؟ ماذا ينشد ليشعر بالأمان والسلام؟ وهذا ما شعرت به ليزي فتداعت جدران الحقد الفاصلة بينها وبين زوجها. وشعرت بأن هذا الرجل قريب منها ولم يعد ذلك الشخص الشرير الذي كرهته الى حد لا يوصف. نظرت الى وجهه فلم تستطع انكار جماله الباهر وملامحه النبيلة المتناقضة مع أسماله الغجرية. ويزيده هذا التناقض غرابة وفرادة لا يملكها غيره من الرجال. جعله ذلك أميراً في ثوب فقير، نبيلاً في

ملامح رجل أسمر على شظف العيش وعبر مصاعب الحياة.

لم تر ليزي في حياتها أحجية بهذا الغموض، وسامة متعالية في رجل فقير ينتمي الى قوم يفتشون عن اللقمة ليسدوا رمقهم، يعيشون مشردين بلا وطن ولا هدف.

التفت رادولف اليها فوجدت صعوبة في ازاحة نظراتها المأسورة ببريق عينيه السوداوين.

- متى سنصل مقصدنا؟

- لدينا الكثير من الأميال بعد.

لم تقنع ليزي بهذا الكلام فقالت:

- هذا ليس بجواب، ألا تستطيع ان تكون أكثر وضوحاً؟

تناول رادولف الفاكهة وأجاب:

- أعتقد أنه علينا اجتياز حوالى الخمسين ميلاً.

ناولها تفاحة حمراء سائلاً:

- أتريدين تفاحة؟

- بكل سرور.

- على الرحب والسعة يا عزيزتي. ما رأيك بمزيد من الشاي؟

استغربت ليزي كل هذا الانتباه وكل هذه الرعاية من زوجها، لاسيّما أنها خذلته باعلانها عن رغبتها في عدم العيش معه واصرارها على الفرار.

- لا، شكراً.

- فلنجمع أغراضنا إذن لنكمل الرحلة.

تنهدت المرأة وقالت شاكية:

- أود لو أعرف سبب رحلتنا.

- كوني على ثقة بأن السبب وجيه جداً.

أخذ رادولف يجمع الأغراض في حين توجهت ليزي الى البحيرة لترمي في مياهها بقية الشاي وذكرى ساعات بديعة أمضتها في هذا المكان حيث لم تفكر مرة واحدة، خلافاً للسابق، بايجاد طريقة

للفرار!

في السيارة شاركها رادولف تساؤلها عندما قال:

- أرى أنك لم تحاولي الهرب اليوم!

- لم أجد فائدة في ذلك لأنك بدون شك أسرع مني في العدو، فلو حاولت شيئاً لامسكتني بسهولة.

- هذا صحيح ولكن مع ذلك لاحت لك عدة فرص للإفلات، خصوصاً عندما كنت احضر الطعام من السيارة.

- لقد وزنت جميع هذه الفرص ووجدتها خاسرة لأني كنت سألقى عقاباً شديداً على فعلتي!

لاحظت لين انه بالفعل لم يسمع وانه لم يعلق على الكلام بشيء، ظل رادولف صامتاً حتى وصلا أخيراً الى طريق ضيق متفرع يقوم في نهايته مخيم للغجر.

- سنتوقف هنا يا حلوتي.

- أهذا هو المكان الذي تقصد؟

- كلا، هذه مجرد محطة قصيرة في رحلتنا.

أوقف السيارة قرب احدى العربات وأضاف:

- ابقي هنا على أن لا أغيب أكثر من بضع دقائق.

وأخيراً وجدت لين فرصة ذهبية لتفلت من قبضة خاطفها فهزت برأسها موافقة وغرقت في مقعدها تنتظر ابتعاد زوجها عن السيارة.

تقدم منه بعض الرجال السمر وغرق الجميع في محادثة هامة لم تسمع لين منها شيئاً لأنها كانت بعيدة عن موضوعها. ثم لمست مقبض باب السيارة وأدارته على مهل، ونظرت الى زوجها الذي أدار نظره لها. بعد ذلك لمحت الرجال يرمونها، بين لحظة وأخرى، بنظرات فضولية فتوترت أعصابها وصارت خائفة من الاقدام على خطوة الفرار. شيئاً فشيئاً فترت همتها ورأت انه لا فائدة من المحاولة لأن الجميع في المخيم سيكونون على أعقابها ويعيدونها سجينة. لذلك أعادت اقفال الباب كما فتحته بهدوء وفتحت زجاج النافذة لتسترق

السمع. فاصيبت بالخيبة لأن الحديث كان دائراً باللغة الغجرية. لا بد ان لما يدور بين هؤلاء الرجال أهمية قصوى بالنسبة لزوجها وبالنسبة لها. عندما أطل رجل عجوز انضم الى الرجال وتحدث بالانكليزية فتمكنت من سماع ما قال:

- انه لم يأت يا رادولف. الحظ ودعه وشأنه لأنك تتعب نفسك بدون جدوى. لقد نصحتك مرات عدة . . . فقاطعه رادولف فنظر العجوز الى السيارة وأكمل كلامه بلغة أهل قومه حتى لا تفهم لين شيئاً.

بعد قليل عاد رادولف الى السيارة غاضباً وفي الوقت نفسه عاقداً العزم على الوصول الى هدفه السري.

انطلق بالسيارة دون ان يكلف نفسه مشقة الالتفات الى زوجته ولم يحرك ساكناً إلا عندما انتبه الى ان السيارة تحتاج الى الوقود. فقد استهلكت الرحلة محتويات الخزان الذي ملأه رادولف في الليلة الماضية. عاد الغجري أدراجه الى المخيم وأشار الى أحد الرجال كي يأخذ السيارة ويملأ خزانها بالوقود.

ترجلت لين وهي تتحسر على فرصة أخرى ضائعة للافلات. الا انها خططت للاقلاع بالسيارة فيما رادولف منشغل في اللحظة بتعبئة الوقود ودفع المال. أما الآن فها هي معه في المخيم ويدها حبيسة يده على سبيل الاحتراز ومنعاً لأية محاولة فاشلة تبدر منها.

عندما أخرج رادولف المحفظة من جيبه ليعطي المال للغجري لاحظت لين أن فيها مبلغاً محترماً، فقالت:

- يبدو أن لديك الكثير من المال . . .

غابت رنة المزاح من صوت رادولف هذه المرة عندما أكمل:

- . . . المسروق.

كان بلا شك منشغل الفكر بأمر هؤلاء الرجال فلم ينصرف الى المزاح والمرح كعادته. من الواضح انه ينتقل من مكان الى آخر بحثاً عن أحد فهذا ما استنتجته لين بسهولة من كلام أولاف وكلام

الرجل العجوز. ولكن هذا لا يفسر اللغز كاملاً بل يطرح سؤالاً جديداً: من هو الشخص الذي يبحث رادولف عنه؟ وهذا السؤال يستتبع أسئلة كثيرة منها: لماذا يبحث زوجها عنه وماذا سيفعل عندما يجده . . . ومن الجلي أيضاً أنه ليس من السهل العثور على هذا الشخص كما أنه ليس من السهل أن يستسلم رادولف ويكف عن البحث عنه. فهو مستعد لأن يجوب أوروبا عرضاً وطولاً ليصل إلى ضالته المنشودة. وما زاد الأمر غرابة كون رادولف يملك المال الكافي ليغطي نفقات رحلاته المكلفة. . . ولكن ما يبعث الرجاء في نفس لين هو أن الفرصة المواتية للفرار لا بد آتية في إحدى هذه الرحلات. لأن حراسة زوجها مهما كانت دقيقة لن تستطيع منعها من الهرب.

كانت الشمس قد بدأت بالأفول عندما وصل الزوجان إلى المخيم المقصود، وبريق النجوم شرع ينفذ من بين أغصان الأشجار الكثيفة. أقيم المخيم في إطار طبيعي خلاب في حضن سهل فسيح محاط بجبال عالية ومروي ببحيرات متناثرة هنا وهناك تتجمع فيها مياه الشتاء المتدحرجة من القمم الشاهقة.

كالعادة، هجم الرجال والنسوة والأطفال لملاقاة رادولف مرحبين به أشد ترحيب بلغتهم الغجرية. تكلم رادولف فنظر الجميع بإعجاب إلى لين وهم يطلقون عبارات الدهشة والفرح. فهمت المرأة أنه شرح لهم أنها زوجته. بعد ذلك توجه وإياها إلى إحدى العربات الخالية وكأن رادولف كان منتظراً هنا وأعدت العدة لاستقباله.

بعد أن أصبحا في الداخل طرحت لين السؤال الذي يقلقها:

- إلى متى سنبقى هنا؟ أحس وكأني سلعة يتفرج عليها الجميع في معرض!

- سيعتادون عليك ويعتبرون وجودك طبيعياً مع الوقت.

- ألم يفاجئهم أمر زواجنا؟

ابتسم رادولف قائلاً:

- لم يفاجئهم بل أدهشهم.

- أدهشهم ذلك لأنك كنت معروفاً بإصرارك على عدم الزواج؟

- تماماً.

- من المؤسف أنك رجعت عن مبادئك وتخليت عن إصرارك!

امتلأت نفس لين بالحزن والخيبة من جديد. فاليوم الممتع الذي مر أصبح جزءاً من الماضي والذكريات، وها هي الآن تعود إلى الوحدة والضجر. أعادت إليها العربة الجديدة دور السجينة التي لعبته منذ أن اختطفها رادولف في ذلك اليوم المشؤوم وأجبرها على أن تصبح زوجته. لكن ما يخفف من وطأة المرارة هو كون العربة الجديدة في حالة أفضل بكثير من العربة السابقة. فالجديدة أحدث وأنظف.

لاحظ رادولف حزنها فسأل بقساوة:

- ما بك الآن؟ أنا لم أر في حياتي امرأة متقلبة المزاج مثلك!

- وماذا عن مزاجك؟ أليس حاداً وقاسياً كمزاج وحش مفترس؟

- لم أقل أن طباعك حادة بل متقلبة فحسب. ساعة أراك فرحة وساعة حزينة!

أجال طرفه في العربة وأضاف:

- انظري حولك، ألا تجدين أن العربة نظيفة ومريحة؟ سأجلب حقيبتك من السيارة لتضعي ثيابك في الخزانة. أحضر رادولف حقيبتي زوجته وحقيبة ثالثة وضع فيها ثيابه. جلست لين تراقبه بانبهار يخرج ثياباً أنيقة من حقيبة لا يملكها إلا الأثرياء وأصحاب الذوق الرفيع.

أدرك الغجري أن زوجته فوجئت بما يملك فقال:

- تركتك الليلة البارحة وسرقت كل هذه . . .

قاطعته لين بحدة غير آبهة بالنتائج:

- لا تحاول تفسير أي شيء، فأنا لست مهتمة أبداً بمصدر هذه الملابس!

ابتعدت عنه ووقفت تحدق في قمم الجبال الخلابة وراء [illegible]

الشفق. أنت لو تكون هذه اللحظة جالسة هناك حيث الهدوء والبعد عن الضجيج وكذب حضارة العالم. لمعت دموع الغضب في عينيها، غضب أثاره قتلها وحبيبها المرة.

- أنصحك يا لين بألا تثيري أعصابي، فالنتائج معلومة.

استدارت المرأة حانقة ويداها على خصرها قائلة:

- أيهددني من جديد؟ هيا افعل ما فعلته في الأمس! فهذا أفضل ما يتوقع من... من متشرد حقير!

توقف رادولف عن ترتيب ثيابه ونظر اليها والشرر يتطاير من عينيه.

- ألن تكفي عن التحقير بي؟ أتحاولين إرغامي على استعمال العنف معك؟

تقدم منها وأمسك بكتفيها وقال:

- تعلمي لجم لسانك الطويل فأنا لست مستعداً لتحمل الاهانة تلو الاهانة!

هزها بعنف ولكنه لم يتماد كما فعل في الليلة الماضية بل ضبط أعصابه وسرعان ما تركها. لمست لين آثار يديه القويتين على كتفيها وتساءلت كم من الآلام ستتحمل قبل أن تفلت من قبضته.

- من الأفضل أن تضعي ملابسك في الخزانة لأننا قد نبقى هنا بضعة أيام.

- وإلى أين نذهب بعد ذلك؟

تنهد رادولف وأجاب:

- لا أعلم.

يا له من تبدل! من غجري عنيف الى رجل هادئ، تعب ومثبط العزيمة. انتقت لين كلماتها بدقة عندما تكلمت:

- أتبحث عن شخص معين؟

لم يكن رادولف على علم أنها سمعت كلام العجوز وسمعت قبل ذلك كلام أولاف. فرمقها بنظرة متسائلة:

- ما الذي يجعلك تظنين أني أبحث؟

- انه التفسير الوحيد الذي وجدته لهذا التجوال المستمر.

- فهمت... سأخرج بعد حوالى الساعة واطمئنك بأن العربة محروسة جيداً فلا تحاولي الهرب.

قال رادولف ذلك بلهجة عادية كأن الموضوع ليس ذا أهمية مما أثار لين فصرخت:

- وكم ستغيب؟ لا أستطيع تحمل الوحدة! سأفتح النافذة وأملأ الدنيا صراخاً! لا لن أستطيع الصمود...

- لا تكوني مأساوية بهذا الشكل المسرحي فلن أغيب عنك طويلاً.

زادت ثورة المرأة وهددت:

- سأحطم النوافذ، سأحطم كل شيء!

أطلق الغجري زفرة عميقة فأدركت لين أن في ذهنه ما يشغله كفاية ويجعله يغفل عن مشكلة جديدة تسببها له امرأة، فاستنتجت أنها اذا زادت الامر صعوبة وتعقيداً تخلى عنها وأطلق سراحها ليتصرف الى حل مشكلته الاساسية.

هو بالطبع مشغول بالعثور على الرجل «الخفي»، فإذا مارست لين اللعب بأعصابه واثارته كلما سنحت لها الفرصة، يفقد صبره ويتخلى عنها. لا شك أنها ستدفع ثمن اخطائه كدمات وجروحاً ولكن ذلك لا يقاس بالبقاء في سجن الحياة الغجرية الى الأبد.

- لقد قلت لك إنني لن أتأخر.

وجد رادولف صعوبة في الكلام بسبب الارهاق الشديد، الذي لم تنسه ساعات القيادة الطويلة لأن بنيته القوية تجعله يتأثر من الارهاق الجسدي، بل مشكلته مستعصية تشغل روحه وعقله.

وجهت لين اليه سؤالاً ليس في محله بل يهدف الى تأخير خروجه فقط.

- ألن تتناول طعاماً على الأقل؟

- ليس قبل أن أعود.

لم تكن المرأة جائعة بل حاولت بسؤالها أن تعيق ذهابه، لكنها أذعنت للأمر وجلست على كنبة تنتظر خروجه.

بدا رادولف مترددا في الذهاب. هل هو قلق عليها؟ فشعوره بالقلق واضح على وجهه. عندما فتح الباب ليخرج أعطاها نصيحة أخيرة:

ـ لا تحاولي شيئاً سخيفاً يا لين لأنك لن تنجحي في الفرار.

ـ سأنجح يوماً.

لما نظر اليها بعينيه الماكرتين علمت لين أنه يخطط لما سيفعله بها عند عودته وتأكدت من نياته عندما سألها بخبث:

ـ أواثقة أنت من النجاح؟ سترى مدى صلابتك عندما أعود!

ـ نعم. سأخرج من سجنك وسأحمل معي أبشع الذكريات!

أدركت لين أن لعبتها ناجحة عندما رأت زوجها يعض على شفته السفلى ويده تشد على مقبض الباب. ستواصل حقنها على أعصابه في الغد لتصل الى غايتها.

عاد رادولف الى الغرفة في العاشرة فوجد لين نائمة على كنبة مريحة. استسلمت المرأة بسرعة الى النوم بعد أن وزعت ملابسها في الخزانة وألقت نظرة فاحصة على الغرفة الواسعة والنظيفة. ودخلت الى المطبخ المرتب وحضرت بعض الشاي ثم جلست تحتسي فنجاناً في غرفة الجلوس قبل أن تدخل الى غرفة النوم بعد ان تأكدت من وجود الحراس اليقظين في الخارج يرصدون تحركاتها. لا بد أنهم ينتظرون المال من زوجها لقاء خدماتهم، مال وفير لا تعرف مصدره . . .

وقف رادولف يتأمل شعرها الثقيل كوشاح حريري على الكتف الغض وأحس بالألم يعتصر قلبه، ثم تمتم في نفسه:

غجري متشرد، حثالة المجتمع . . .

توجه الرجل الى المرأة ينظر الى بشرته الداكنة وشعره الأسود القاتم المتشعث كنسمات الجبال الصافية. استدار لما سمع زوجته

تتحرك في كنبتها وتفتح عينيها لتشاهده أمامها.

عرف من ألفاظها عينيها ومن الدموع المحبوسة وراء الجفنين أنها شاهدت الرجل المتوحش، البدائي.

ـ عدت أخيراً.

اقترب الغجري منها وسألها بحنان:

ـ أتفضلين وجودي على البقاء وحيدة؟

كذبت لين كي تجرحه امعاناً في ممارسة لعبة حرق الأعصاب.

ـ بالطبع لا! وجود شخص غير مرغوب فيه لا يشتهيه أحد!

أمسك يديها وأجبرها على الوقوف ثم ضمها اليه بقوة.

ـ أنت تغضبين أعصابي!

قاومته لين بعنف وهي ما تزال شبه نائمة، وفجأة تراجعت عندما لامست وجنتها الجرح في عنقه.

ـ أتخافين من جرح بسيط كهذا؟

تناول يديها ومررها على جرحه وأضاف:

ـ ستنالين قريبا من الدواء نفسه لأني احب معاملة الناس بالمثل.

أتستمر لين في توتير أعصابه؟ لا، لن يجدي ذلك نفعا معه. عليها الرضوخ لمشيئته والاذعان لأوامره لتخفف من وطأة نار هذا الجحيم.

عندما رفع رأسها الى عينيه رأت من جديد الحنان يملأ نظراته، رأت رادولف الخير يطغى على رادولف الشر ويتغلب عليه مؤقتاً في الصراع العنيف الدائر في نفسه. وأحست من واجبها مساعدة هذا الرجل كي يصل الى الأمان وتستقر شخصيته، ولكن ما السبيل الى مساعدته؟ لربما كان تجاوبها مع عناقه كفيلاً بحل المشكلة وجعله يشعر بأنه موضع اهتمام.

وأخيراً جاءت اللحظة الحاسمة فقد جذبها رادولف اليه ليقبلها. أتقدم على خطوة التقارب أم تحجم عنها؟

وللأسف تغلبت غرائز لين على ارادتها وابتعدت عن زوجها الذي لم يرض بالهزيمة وجعلها تسدد الفاتورة بطريقة فظة . . .

بعد أن انقشعت غيوم الهالة والذل لمست لين بين الشهقات التالية:

- أكرهك وسأجعلك تدفع ثمن كل شيء غالياً في يوم من الأيام.

لم تؤثر كلماتها في رادولف بشيء، لأنها كانت موجهة الى الجانب السيء الذي تحدثت عنه.

حملها بخفة الى السرير ليكمل انتقامه وينهش من جلدها المستسلم هنيئاً.

٧ - منزل على الشاطئ الذهبي

دام تنقل رادولف ولين من مخيم الى آخر مدة أسبوعين جابا خلالها أنحاء واسعة من ايرلندا. قطعا الجبال والسهول، والبحيرات والأنهار، والوديان والمراعي . . . . ولو لم يكن هاجس الفرار ماثلاً في ذهنها لاعترفت لين لنفسها سعيدة الى درجة لا توصف.

لم يقترب رادولف منها منذ أن صفعها المرة الأخيرة، حتى أنه كان ينام على كنبة ويترك لها السرير لتأخذ حريتها. صار يعاملها بكل لطف وعناية وإن لم يخل الأمر أحياناً من كلمات جارحة تأتي رداً على زلات لسان تبدر من لين. لكن القضية لم تتعد الكلام لحسن الحظ.

حاول الغجري أن يظهر الجانب الحسن وبالتالي سحق شخصيته الشريرة المرعبة. وقد نجح لا في إزالة خوف لين فحسب، بل بإنشاء

علاقة وبين الاثنين. فأصبحت قوته خالية من البطش وسطوته بعيدة
عن الظلم. كما غاب عن لين الشعور بالأسى والمرارة اللذين رافقاها
كثيراً في أيام اختطافها الأولى. ولكنها لم تكف مع ذلك عن الكلام
عن الهرب في أول فرصة تلوح لها.

وفي الحقيقة صارت لين مقتنعة تقريباً بحياتها كزوجة لغجري
متجول. لا سيما وأن راتوليف لا يترك مناسبة إلا ويذكرها بأن مكان
المرأة هو الى جانب زوجها. لكن ذلك لا يعني شعوراً بالاستقرار بل
كانت المرأة الشابة في حالة انتظار وتوقع دائمين منتظرة أن تعثر
زوجها على من يبحث عنه سيغير مسار حياتها.

لم يحط الزوجان حتى الآن رحالهما في مكان معين بل استمرا في
التطواف من مطرح الى مطرح، يشغلان العربة الشاغرة، ويحلان
ضيفين على قوم الزوج كان من عادات الغجر إبقاء عربة مخصصة
للضيوف غير متوقعين يأتون على حين غرة كما يفعل راتوليف. لكن
لين غفلة في تصورها لأن راتوليف كان منتظراً أينما حل وكانت تخلى
له عربة خصيصاً قبل وصوله بساعات قليلة. ويعود اليها سكانها
الأصليون فور رحيله.

سألت لين زوجها يوماً وهما في طريق العودة الى كيلارني بعد أن
زارا ثلاثة مخيمات مكثا في أحدها يومين وفي الآخرين بضع ساعات.

ـ الى متى سنظل نتنقل هكذا؟

ـ أعتقد أننا سنكون في بيتنا بعد حوالى الأسبوعين.

أوقف راتوليف السيارة الى جانب الطريق وأخرج قنينة شراب
البرتقال من صندوق السيارة ليتناولا كوبين منعشين، في حين كان
تفكير لين يعمل جاهداً لاستيعاب كلمة «بيتنا». عن أي بيت يتكلم
زوجها؟

ـ أتعني أننا سنستقر في مخيم معين؟

* قالت لين ذلك وهي تهز رأسها وتفكر بوجودها في مخيم للغجر
وبالحياة التعسة التي تنتظرها. وبرغم ذلك فهي تقر أنها لا تتصور

نفسها تعيش بدون راتوليف من دون أن تعلم السبب. صارت
الأمور مشوشة في ذهنها فمنزلها وعائلتها الطيبان يقومان في وطنها
انكلترا حيث تحلم بالعيش في منزل صغير أنيق عائلة صالحة يشاركها
في طموحها رجل تحبه أو على الأقل ترتاح له وتعيش وادعة مطمئنة.
طالما عادت صورة توماس الى ذهنها في الأيام الماضية لكن راتوليف
كان مصيباً عندما قال ان توماس لا يناسبها. فهو رجل طيب لكنه
ليس خلاقاً مما يساهم في زيادة الرتابة والروتين في حياتها التي علمت
من خلال تجربتها الجديدة مدى سخافتها، وانسيابها المجرد من أي
نكهة ومعنى.

قطع راتوليف حبل أفكارها بقوله:

ـ لا بد أن ننتهي من التطواف ونستقر.

اعترضت لين بلهجة ناعمة قريبة من التوسل:

ـ لا أستسيغ فكرة العيش في مخيم، ألا نستطيع السكن في مكان
آخر؟

رمقها زوجها بنظرة ملؤها الحيرة والتردد كأنه يخاف من البوح لها
بأشياء يكتمها في نفسه على مضض. لذلك اختار كلماته بدقة وقال
بتمهل:

ـ أفهم من كلامك انك أصبحت مقتنعة بالعيش معي؟

هربت لين من نظراته وأخذت تفكر لماذا لم تعترض على ذلك
بشدة كما كانت تفعل في السابق. وبعد أن وزنت الأمور في رأسها
وتراءت لها حياتها المقبلة وما يمكن ان تعانيه في المجتمع الغجري من
عبودية تصيب المرأة وتذلها. صاحت بأعلى صوتها:

ـ لا؟ لم أقتنع بذلك! سأستمر في محاولة الفرار وسأنجح في ذلك!
انك لا تستطيع مراقبتي الى الأبد، لا تستطيع أن تراقب تحركاتي
لسنوات وسنوات حتى نصبح عجوزين هرمين!

ارتفعت حدة نبرة لين حتى جفل راتوليف منها وزادت:

ـ أرجوك دعني أمضي في سبيلي، أرجوك دعني أعود الى بلدي!

بكت المرأة بمرارة وغطى كيانها اضطراب كبير فأخذت ترتعش حتى أوقعت كوب العصير على ثوبها.

تناول الغجري الكوب من يدها وانتظر حتى هدأت. وبالفعل عادت لين إلى هدوئها السابق وتكلمت بكل واقعية:

- لنعقد اتفاقاً سرياً لنا نحن الاثنين. تعطيني حريتي مقابل سكوتي عن حادثة الاختطاف وتعهدي بألا أطلع أحداً على ما جرى.

بلعت لين ريقها لتزيل الثقل القابع في حلقها وأعصابها الثائرة تجعل منطقها مخلوطاً، وفكرها شارداً ومشوشاً. لم يعد شيء في ذهنها واضحاً. وأحست برغبة في الصراخ عندما مرت أمامها الصور متدافعة، صور الحرية والعودة إلى الوطن، صور راوولف الطاغية وسطوته القاسية تطردها صور طيبته ولطفه اللامتناهي. ودار في خلدها صراع قاس بين الحياة مع راوولف والحياة بدونه. فالأولى رحلة لا تنتهي بين المخيمات حيث شظف العيش، والثانية حلقة مفرغة تبحث فيها عن سعادة تائهة.

برزت الحقائق من بين غيوم عقلها المتشعبة. وعجزت لين عن الاختيار فلم تجد إلا صرخة صادقة تطلقها من أعماقها:

- ساعدني يا الله!

- لين ما بك يا عزيزتي؟ بالله عليك لا تفعلي هكذا بنفسك!

لم تنس المرأة بنت شفة بل نظرت إلى الغجري لا تصدق أن ما يختلج في قلبها حقيقة. همست في نفسها:

- لا، هذا ليس صحيحاً، لا يمكن أن يكون صحيحاً. . .

تكلم راوولف ثانية لكنها لم تسمع شيئاً لانشغالها بالحقائق الجديدة. سرت في جسمها رعشة قوية وارتجفت بشدة ثم سقطت بين يدي زوجها.

- لين، ما بك؟ هل أنت مريضة؟

كان صوته ناعماً ينم عن قلق عميق. لكن لين ليست مريضة بل

هي في حالة أخطر من ذلك. رفعت رأسها وكأنها تخرج من الغيبوبة، ثم حدقت في الرجل وتساءلت عما يمكن أن تكون ردة فعله لو أطلعته على ما اكتشفت لتوها. أيستقبل الخبر بفرح أم يقول متشفياً: لقد وقعت في غرام غجري متشرد إذن! وهكذا لن تتركيني بعد الآن يا امرأة الآن حبك لي يجعلك أمة خاضعة!

لن تخبره بذلك أبداً! ولن يغير الوضع الجديد من تصميمها على الهرب لأنها لا تنوي قضاء حياتها مع الغجري برغم حبها القاتل لراوولف. لن تستطيع رؤية أطفالها يترعرعون في خيم وسط القذارة وبعيداً عن المدرسة الصالحة والبيئة الصالحة. ستجعل العقل يسيطر على العاطفة وتحكّم المنطق ليسحق الحب.

لما عادت إلى التفكير براوولف من جديد عاد التشوش والبلبلة إلى ذهنها. لقد استنتجت في السابق أنه يملك شخصية مزدوجة وقالت إنها لو استطاعت إبقاء جانب السيء بعيداً لاستطاعت تمضية أيام حلوة معه. وفي الحقيقة أنه كان إنساناً رائعاً خلال الأسبوعين الماضيين فهو عاملها بكل رقة ولطف، حتى أنه لم يحاول تقبيلها مرة. . .

لقد كبح جماح غرائزه لإسعادها وقدم مصلحتها على مصلحته دون أي أنانية أو حب للذات.

أي رجل هو هذا؟! لا تستطيع لين تحمل العيش مع رجل غامض إلى هذا الحد. وإن تكن تصرفاته الأخرى مقبولة ولائقة.

نفذ صوت راوولف من خلال أفكارها كالنور يتسلل بخجل من بين طيات الضباب:

- سألتك إذا كنت مريضة.

- أنا بخير الآن.

قالت لين الحقيقة لأنها بدأت تشعر بالتحسن مع أن أفكارها ما تزال مبلبلة. نظرت إلى وجهه فكادت تقسم أنه ليس غجرياً، لا يمكن أن تكون هذه الوسامة الراقية في غجري. . .

حيرت لين الموضوع فجأة وسألته عن هوية الشخص الذي يبحث عنه. جعل راوولف تساؤلها وقال:

- ألم تقولي سابقاً إني أبحث عن شخص وبررت استنتاجك هذا؟

- قلت ان هذا هو التفسير الوحيد لتقلقك الدائم.

أطرقت لين قليلاً وزادت:

- سأكون صريحة معك هذه المرة.

- تفضلي.

- سمعت الرجل العجوز يتحدث اليك عن رجل لم يأت الى المخيم وينصحك بألا تكمل البحث عنه.

فكرت لين بأن تذكر كلمات أولاف أيضاً لكنها عدلت لأن ذلك ليس ضرورياً.

- لم تخبريني بذلك في المرة السابقة.

- نعم عندما قلت لك انك تبحث عن أحد ما؟ لا لقد ظننت انك تغضب لو عرفت اني كنت استرق السمع.

حاول راوولف ان يبتسم وقال بعد أن غير وجهة الحديث:

- أتظنين الآن على شيء يغضبني. ألم تخافي من إثارة غضبي ؟

- لم أعد أخاف منك.

- قولي بصراحة يا لين، هل أنت أسعد الآن مما كنت عليه...

توقف فجأة محاولاً ابتلاع الكلمات الباقية لانهاء السؤال، لكن دفعة من الشجاعة أتت لين فأكملت عنه:

- مما كنت عليه عندما كنت ترغمني على مشاطرتك السرير؟

فوجىء الغجري بصراحة زوجته ولكنه كتم شعوره بذكاء.

- أحسنت فهذا ما كنت سأقوله.

- لست سعيدة بل راضية.

ان تردد لين وعدم ثقتها بما تقول يضرب بها المثل. فلماذا تنكر أنها طالما نظرت الى يديه القويتين خلال الاسبوعين الفائتين وتذكرت مداعباتها ولمساتها الجذابة وقالت لم يعد الفكرة؟ أهي ترغب فيه؟ وفي

لا تحبه. الحب... احتقرت نفسها لأنها وقعت في حبائله لمجرد أنه كان ودوداً معها في الأيام الماضية. كرهت ضعفها وسرعة ذوبانها في بحر العاطفة.

ولكن هل صحيح ان شعور الحب لم يبدأ الا منذ وقت قصير؟ خصوصاً وان لين تعترف أنها وجدت الغجري جذاباً منذ رأته...

- وهل يرضيك عيشنا بهذه الطريقة حتى نصبح عجوزين هرمين؟

- سؤالك غير مجد فأنا لا أنوي قضاء حياتي معك.

سمعت لين زوجها يتنهد بدل أن يغضب كالعادة وتساءلت اذا كان سلم بالأمر الواقع واقتنع بأن المشاركة في الحياة الزوجية تأتي نتيجة الرضى المتبادل لا القهر والاكراه.

بعد دقائق انطلق راوولف بالسيارة صامتاً وملامحه قاسية كالصخر، ينظر أمامه كأن عينيه متجمدتان لا حياة فيهما. وغرقت لين بدورها في التفكير بمشاكلها وبالحل الأنسب الذي يخرجها من هذا المأزق من دون أن تسبب أي ألم لزوجها.

توقف الغجري في أحد المطاعم لكنه لم يأكل هناك سوى بضع لقيمات. وأبلغ زوجته بعد ذلك أنهما سيمضيان الليل في منزل يملكه صديق له يقع على شاطىء البحر.

- ومن هو هذا الصديق؟

- لا ضرورة لأن تعرفي.

- انه ليس غجرياً بالطبع.

- لي أصدقاء كثيرون من غير الغجر يا عزيزتي.

- أهناك أحد في المنزل؟

أجاب راوولف بنبرة ناعمة وفي صوته تلك الرنة الموسيقية القريبة من اللهجة الايرلندية:

- المنزل خال فهو مخصص لقضاء العطلة الصيفية. أنا واثق من انه سيعجبك كثيراً فهو مجهز بكل شيء، برغم بعده عن أي تجمع سكني.

- أتعني أن المنزل منعزل؟
- يبدو أنك فكرت بالهرب يا حلوتي! لم أكن لأصطحبك الى هناك لو لم يكن المنزل منعزلاً عن بقية العالم.
- أيستعمل المنزل لأغراض سياحية؟ فالبعض يحب تمضية وقت فراغه بعيداً عن الناس.
ضحك رادولف وعلق:
- استعملت عبارة بارعة لاخفاء خوفك.
- ماذا تعني؟
- لا تدعي الغباء يا لين. ظننت أن وجودك في منزل على شاطئ البحر سيسهّل الفرار. ففي المخيمات هناك من يراقبك ليلاً نهاراً.
- الفرار من هيم المتحجر هو في الحقيقة مستحيل، أما بالنسبة لاستنتاجاتك الأخرى فانك مخطئ، لأني صرت أعرفك كفاية كي أدرك أنك حاضر أبداً لاحباط أية محاولة أقوم بها للافلات. جل ما في الأمر أني استغرب وجود منزل مخصص للعطلة في مكان منعزل كما فهمت من كلامك.
- لقد بنى صديقي هذا المنزل منذ أربع سنوات حتى يهرب من همومه ويرتاح هناك من عناء أعماله المتراكمة.
صمتت لين لكلام زوجها فكيف يتوصل غجري الى مصادقة شخص ثري يبني منزلاً لمجرد حبه الاختلاء بنفسه؟
- لا بد أن صديقك ثري جداً! أنا . . . لم أعد أفهم شيئاً. آه لو تخبرني المزيد عن نفسك فلربما صارت الأمور بيننا مختلفة.
ضغط رادولف على المكابح حتى كاد رأس لين يرتطم بالزجاج الأمامي. نظر اليها بدهشة وسألها:
- ماذا تعنين بمختلفة؟
هزت المرأة رأسها عاجزة:
- لا أستطيع التفسير.
وبالفعل لم تكن تستطيع التوضيح لأنها هي نفسها لا تعلم ماذا

تقصد تماماً من كلامها.
انطلق الغجري بالسيارة، وقاد لساعات في طرق متعرجة تتعرج بين الهضاب الخضراء حتى انعطف أخيراً في زقاق ضيق لا يعرفه أحد وليس موجوداً على الخريطة كما أبلغ زوجته.
كانت لين تلهث عندما رأت جمال الطبيعة حولها، صخور الشاطئ، ورماله الذهبية الترابية كأنها لا تنتهي . . . لا يزورها سوى طيور النورس تبحث عن رزقها بعيداً عن فضول الانسان.
استمر سيرهما في هذا المكان النائي حتى وصلا الى طريق صخرية لم تعرف طعم الاسفلت، فأخذت السيارة تثب على الحجارة وراكباها يعانيان صعوبة المسلك حتى بلغا أخيراً بوابة عتيقة منحوتة في الحجر تدل على أن المنزل بني على أنقاض بناء قديم. وخلف البوابة والسور المحيط بالأرض نمت أشجار خضراء من مختلف الأنواع، وتوزعت أزهار وورود زاهية هنا وهناك تضفي على الجو رونقاً وضياء.
كانت أشعة الشمس ما تزال ساطعة ترسل ألوانها على المنزل الأبيض المحاط ببساط من العشب الأخضر وسجادة من الأزهار.
انعقد لسان لين من الدهشة وصعقت لجمال هذه البقعة الطاهرة التي لم تدنس عذريتها أرجل الانسان الشره.
قالت وهي تترجل من السيارة:
- آه ما أروع هذا المكان!
أجالت طرفها بين الجبال الشاهقة والبحر المترامي الأطراف في زرقة يخالطها بياض الزبد. صحيح هي طبيعة ايرلندا في جمعها سمو الجبال ووداعة البحر في لوحة واحدة.
- كيف وصل صديقك الى مكان كهذا؟
مرت لحظات تردد قبل أن يجيب زوجها:
- ان عائلته تملك الأرض منذ عدة أجيال وقد أقامت فيها مزرعة كبيرة

أشار بيده إلى بقايا البناء المتهدم وقال:
- كان هذا بيتاً لعمال الزراعة. وجد صديقي المكان مناسباً لبناء منزل يرتاح فيه عندما يحتاج إلى الابتعاد عن عالم الأعمال والضجيج.
- وماذا يعمل صديقك؟
- لديه أعمال كثيرة.
جاء جواب الغجري مقتضباً يحذر لين من التمادي في طرح الأسئلة، ويعلمها بأنه ما عاد يرغب في التوغل في الموضوع أكثر.
دخل الزوجان إلى المنزل الفخم حيث الأثاث الوثير والسجاد العجمي والستائر الحريرية الفاخرة. وأعجبت لين بالثريات والكريستال والآنية الفضية والتماثيل العاج والبرونز.
كما لفت نظرها الديكور المتوافق الذي نظمت على أساسه غرفة الجلوس، ثم هزت رأسها مدركة أن هذا المكان ليس للغجري وظنت أن راندولف ليس صديقاً لمالكه كما ادعى، بل هو يدخل إليه خلسة عندما يعلم أن أصحابه غائبون. ولكن من أين له بالمفتاح؟ الجواب على ذلك ليس مستعصياً لأن هناك نوعاً من المفاتيح الخاصة يناسب جميع الأقفال. والغجر مرشحون أكثر من غيرهم لاقتنائهم هذا النوع.
أعادها صوت راندولف إلى الواقع عندما بادرها بالسؤال:
- بماذا تفكرين؟
- كنت أفكر بكل هذا المال المهدور على بيت شبه مهجور.
لم يقنع جواب لين زوجها الماكر فصحح قولها:
- لا يا عزيزتي، كنت تقولين في نفسك كيف يمكن لغجري حقير أن يتعرف إلى أصدقاء أثرياء كصاحب هذا المنزل؟
مرة جديدة عادت مسحة المرارة إلى صوت راندولف. ولكن لين لم تشعر بالشماتة لذلك بل انزعجت وحاولت تغيير وجهة الحديث.
- أهناك حمام في هذا المنزل؟

- وهل يعقل ألا يكون هناك حمام؟ تعالي لأدلك إليه.
بعد ذلك أراها غرف النوم المزينة والنظيفة كما دخلا إلى المطبخ الواسع والمجهز بأحدث الوسائل وأغلاها.
- لا بد أن أحداً يأتي إلى هنا باستمرار ليبقى المنزل نظيفاً.
هز راندولف برأسه موافقاً وهو يشير إلى بقعة خضراء لا تبعد كثيراً عن البيت.
- هناك مزرعة صغيرة خلف تلك الأشجار تملكها أرملة في الخمسين كلفها صديقي الغني، يومياً للاهتمام بالمنزل.
- يومياً؟
- ستأتي في الصباح الباكر وهكذا ستتأكدين من أني لست متسللاً. أليس هذا ما يشغل بالك؟
احمر وجه لين لملاحظته الجارحة والصائبة لكنها رأت في مجيء هذه المرأة عملاً يحتمل أن يساعدها على الهرب.
- لا تبني آمالاً كاذبة فالسيدة ويلت تحبني كثيراً وتنفذ مشيئتي.
- يبدو أن لديك الكثير من المحبين.
تجاهل الغجري ملاحظة زوجته وقال:
- المياه ساخنة الآن إذا كنت ترغبين في أخذ حمام. لقد أتت السيدة ويلت لتحيتنا وأمرتها بتسخين الماء.
حدقت لين فيه بذهول مطبق.
- أتت السيدة... ولكن متى وكيف عرفت ذلك؟
ضحك راندولف وأجاب:
- طلبت إلى المضيف في آخر مخيم توقفنا فيه أن يتصل بها هاتفياً.
- فهمت.
تظاهرت لين بالفهم لأنها مهتمة الآن بالدخول إلى الحمام والاستلقاء في المياه الساخنة لترتاح وتنعم بهذا الترف الذي حرمت منه منذ مدة طويلة. ولما همت بدخول الحمام لتخلع ثيابها وجدت الباب مقفلاً.

- ستخلعين ثيابك في غرفة النوم قبل أن أعطيك مفتاح الحمام.
- لماذا هذا التعقيد؟
- لأني أود مساعدتك في ذلك يا حبيبتي.
- أنت تفكر في كل شيء.
- علي أن أفكر في كل شيء، وإلا أفلت زمام الأمور من يدي.

أمضت أبن وقتاً طويلاً في غمرة الماء الساخنة. ولما عادت الى غرفة النوم كانت هادئة ومرتاحة الأعصاب.

جلس رادولف على السرير يتأمل جمال زوجته في قميص النوم الذي أخرجه غاس احدى الخزانات. نظر الى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال:

- يظهر أنك تمتعت كثيراً بالماء، لأنك أمضيت ما يقارب نصف الساعة في الحمام.

علقت أبن بجدية:

- أنا حقاً أسفة للتأخير.
- لا عليك يا طفلتي فأنا كنت مشغولاً باجراء بعض المكالمات الهاتفية.

مكالمات هاتفية... هذا يعني أن ثمة هاتفاً في المنزل. حاولت المرأة أن تتكلم بلهجة عادية حتى لا ينتبه زوجها لخيبتها.

- ألا يمانع صديقك استعمالك هاتفه؟
- لا أبداً.

دخل رادولف بدوره الى الحمام تحت أنظار زوجته المتسائلة عن ماهية مكالماته التي ليست بالطبع موجهة الى العم فيجري، لأن هذه الأمكنة لا تعرف الهاتف.

انتظرت بضع دقائق حتى سمعت صوت الماء وتأكدت من أن زوجها لا يراقبها، ثم خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها وشرعت تبحث عن مكان الهاتف دون جدوى. لا عجب في أن يخفيه رادولف الداهية لأنه مدرك أن زوجته لن تكون غبية وتدع فرصة

استعمال الهاتف تفلت من يدها وتضيع هباء.

تخلت أبن عن البحث وجلست على طرف السرير تفكر في طريقة حديث زوجها عن الهاتف، وكأنه يتعمد خلق مواقف تجعل زوجته تطرح على نفسها المزيد من الأسئلة حول حقيقته. لكنها لم تجد سبيلاً كي تقنعه بالاجابة على التساؤلات الدائرة في ذهنها والتي تسبب لها حيرة وشكاً عظيمين.

لماذا تشك المرأة؟ ما هو التفسير الشافي لكل الغموض الذي يحيط بزوجها؟ من المسلم به أن رادولف فيجري ومع ذلك لا يمكنها انكار بعض الصفات التي تجعل منه شبيهاً بأي رجل مثقف لا بل أرستقراطي نبيل، ان في حديثه أم في تصرفاته. وفي الفترة الأخيرة بالذات، أي منذما حلا في البلاد، اختفت عنه كل علامة تشير الى أنه فيجري. حتى ملابسه بدت متغيرة خصوصاً وأنه صار يرتدي ثياباً عادية مختلفة عن الزي شبه «الفولكلوري» الذي كان غالباً على هندامه في السابق.

والسؤال المحير يبقى لماذا هذا التبدل أو لماذا عمد رادولف في بداية تعارفهما الى كتب هداتها؟ لماذا؟... لماذا؟؟ أسئلة لا تنتهي! يضاف اليها هذا المنزل الضخم كقطعة جديدة في الأحجية. مادام من غير المعقول أن يكون لفيجري صديق حميم بهذا الثراء يعهد اليه بمفاتيح بيته ويعطيه حرية التصرف المطلقة، سيما وأن رادولف بدا معتاداً على المجيء الى المكان من خلال معرفته كل التفاصيل المتعلقة بالأثاث وبتاريخ المنزل وظروف تشييده... يضاف الى ذلك السلطة التي يستطيع بموجبها أن يأمر الأرملة بتحضير البيت وتنظيفه استعداداً لحضوره.

في هذه اللحظة دخل رادولف الى غرفة النوم مرتدياً لباس نوم أنيقاً يتناقض مع شعره غير المسرح، ويعطيه شكلاً فريداً جامعاً بين المظاهر الأنيق والطبيعة البدائية... لا ينقص من رادولف الا أن عاقر بغيرة خارج سربه!

عرف الفجري ما أثاره مظهره في نفس زوجته فقال معتذراً:

- آسف لمظهري، ولكني سأتحسن مع الوقت اذا اهتممت أكثر بالتفاصيل.

- لا ضرورة للتهكم. أتسمح الآن بأن ارتدي ملابسي فالجلوس دافئاً كفاية هنا؟

لم يقتنع راندولف لسماع المزيد فسارع الى تشغيل جهاز التدفئة المركزية. وعلى الفور غمر المنزل دفء عارم. بعد ذلك عاد راندولف الى غرفة النوم وفتح خزانة الثياب.

- ستجدين ثيابك وحقيبتك هنا.

استدار وأكمل:

- أظن أني رأيت بين ملابسك فستاناً طويلاً.

تأخرت لين في الاجابة لأنها كانت تراقب بتعجب اللباس الذي يرتديه زوجها والمناسب له تماماً مما يدل على أن قياسه مماثل تماماً لقياس صديقه، حتى الكمان يناسبان ذراعي زوجها المتميزتين بطولها.

- ماذا عن الفستان؟

- أريدك أن ترتديه الليلة.

مرر نظراته الشغوفة على جسمها وأكمل:

- سنتناول العشاء بكامل أناقتنا كالناس متمدنين.

عدلت المرأة عن الاعتراض لأن فكرة ارتداء ثوب أنيق والجلوس الى طاولة لتناول الطعام محببة بعد كل هذه الفترة البوهيمية، حيث تخلت مرغمة عن مبادئها المتعلقة بالنظافة والشكليات. وفي الواقع وجدت لين نفسها تبتسم وهي تتصور المائدة المغطاة بشرشف مزركش بالزهور والمزين بآنية فيها وردة مقطوفة من الحديقة المحيطة بالمنزل.

منحها راندولف احدى بسماته النادرة وهو يتناول الفرشاة ليسرح شعره قبل أن يقول:

- أرى أن اقتراحي أضحكك. أخرجي الفستان الذي لأراه.

فعلت لين كما أمرها وأخذت تتمشى أمامه في الثوب الأصفر الطويل دون أن تشعر بأي حرج. بل على العكس قالت بعد أن أحضرت فستاناً آخر ذا لون أرجواني:

- ما رأيك بهذا؟

اقترب الفجري من زوجته فأحست بالرعشة تعتريها وكأن في الرجل قوة مغناطيسية غريبة يزيد منها طبعه المتكبر. احمرت وجنتا المرأة وثقل تنفسها وفي ذهنها فكرة واحدة: حبها لراندولف. مع اقتراب راندولف منها أكثر زادت دقات قلبها أكثر فأكثر وعلمت أنه لو أراد ضمها الى صدره لما أحجمت بل لرحبت بذلك بكل جوارحها. لكن زوجها خيّب آمالها واكتفى بطبع قبلة ناعمة على جبينها.

٨ - اشراقة في القلب

جلس رانولف ولين متقابلين الى مائدة مضاءة بالشموع في شمعدان فضي، ومزينة بزهرية مليئة بورود حمراء. وعلى طرف المائدة وضع اناء طافح بمختلف أنواع الفاكهة. أما الشرشف فأبيض كالثلج تغطيه السكاكين والشوك الفضية.

جلست لين في فستانها الأصفر سعيدة كما لم تكن يوماً منذ أن التقت رانولف، وهي تعلم أن هذه السعادة لن تستمر طويلاً. فالأمسية ليست إلا واحة صغيرة في صحراء حياتها مع زوجها، والتي تنوي الخروج منها برغم كل الاعتبارات الأخرى وأهمها... حبها للصحري.

لكن رانولف بطريقة ما من الدخول الى هذا المنزل الذي يحوي

في ما يحويه، حوضاً للسباحة في قاعة مغلقة مكيفة، وملعباً لكرة المضرب في القاعة نفسها، كما أقيمت في الجهة الخلفية بحيرة اصطناعية صغيرة لاكمال اللوحة الفنية خصوصاً وانها تطل على الهضاب الخضراء الخلابة.

قررت المرأة الشابة نسيان شكوكها لتمضي وقتاً ممتعاً في هذا المكان الذي اعتبرته أكثر شاعرية من كل ما أبصرت عيناها. فلم تستغل الفرصة وتتذوق حلاوة كل دقيقة لها هنا بدل ان تشغل فكرها في ما لن تستطيع توضيحه؟

من جهته ارتدى رانولف بزة رسمية سوداء وتحتها قميص أبيض يزيده اشراقاً لون بشرته السمراء، لكنه لم يبد متزعجاً من لباسه هذا أو غير معتاد عليه.

تدخل صوته معلقاً بحلوية:

- أنت هادئة كثيراً يا عزيزتي.

- اني اتمتع بهذه الأمسية اللطيفة.

أكمل رانولف مازحاً:

- وتريدين بالطبع أن تطرحي الكثير من الأسئلة. أنت اكثر امرأة متحفظة رأيتها في حياتي.

- وهل تريدني ان أضع كل ثقتي بك؟ ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

تجاهل رانولف سؤالها واهتم بصب الكافيار الفاخر الذي وجده في خزانة مليئة بالمعلبات على اختلافها. وبعد ان انتهى قال:

- لماذا لا تطرحين علي بعضاً من تلك الأسئلة المقلقة؟

- ومن قال أني قلقة؟

- ذلك يقرأ على وجهك يا عزيزتي. فتقول أنك محتارة لا قلقة وسبب الحيرة أشياء كثيرة حدثت في الفترة الأخيرة.

- أشياء لا تحصى ولا تعد.

توقفت لين لتتذوق بعض الكافيار ثم أضافت:

- أتمنى أنك مستعد للاجابة على الأسئلة، فأنت لم تخرج من

تكتمك حتى الآن؟

- ليس في الأمر تكتم بل عدم ضرورة للبوح بكل الأسرار.

وما أكثر هذه الأسرار ومنها أن المرأة، وهي بالطبع ملك لصديقه، تناسب جسمه تماماً. أليس من الممكن أن يكون في الأمر مصادفة؟

- ماذا تعني بعدم الضرورة؟

رفعت لين عينيها إلى وجهه فوجدته منقطعاً عن الأكل يحدق فيها ووهج نار الشموع يزيد من سحر وجهها وجماله. أعادت إليها نظراته ذكرى لقائهما الثاني في الغابة عندما جاء على حصانه وبدا مسحوراً بجمالها. كان في الحقيقة مختلفاً وقتها عما رأته فيه في اللقاء الأول حيث أعمته الرغبة فحاول الاعتداء عليها. في الغابة ظهر مهذباً وحياها بكل بساطة كأنه يقابلها للمرة الأولى، ويسعى للتعرف إليها ومصادقتها دون الالتفات إلى الحادثة السابقة. حبذا لو أن تلك الحادثة لم تحصل وكان اللقاء في الغابة هو الأول، لكانت الأمور بينهما مختلفة الآن!

قالت لين أخيراً بعد أن انتهت من تساؤلها:

- وهذه الضرورة أصبحت متوفرة الآن!

وجف قلبها إذ أدركت بحدس ما أنها على وشك اكتشاف أمر خطير كفيل بحجب السعادة الدائمة. اختلج في نفسها شعور غريب تلاعب بانفعالاتها وجعلها في نفس الوقت تقتنع بأنها لو عرفت كيف تعالج الوضع الجديد الذي سيخلقه رادولف لما عاد زواجها منه تلك المأساة التي بدأت عند اختطافها وإرغامها على عقد زواج غجري لا تؤمن كثيراً بصحته.

أجاب رادولف على سؤالها وكانت تلوح الهيبة عبر عيناه الحزينتان:

- من المفيد لنا نحن الاثنين أن أوضح لك بعض الأمور التي أوقعتك في مغالطات عدة.

لاحظت المرأة الحزن في عيني زوجها ولكنها لم تستطع فعل أي شيء لتمحو هذه المسحة الأليمة من نفس من تحب. إزاء سكوتها أكمل الغجري:

- بالرغم من ذلك أفضل يا عزيزتي ألا تتعرضي لسماعك الآن بل لندع الأمور تتوضح تلقائياً، وذلك بات قريباً.

هز رادولف رأسه وتجهم وجهه وبدت عليه علامات القلق والتردد عندما قال بصوت خافت:

- أنا في داخلي احساس بأن نظرتك إلي تغيرت يا لين، ولكني لست أكيداً... لا، لا أجرؤ... نفذت كلماته كالسهام إلى أعماق لين واختلطت عليها الأمور إذ لم تفهم ما قاله زوجها. ليس أكيداً... وبالتالي لا يجرؤ على مصارحتها بما يريدها أن تعلم عنه. أحست لين بأن فرصة العثور على السعادة بدأت تضيع وربما لم تخلق للعيش مع هذا الرجل تحت سقف واحد. ولكن هل هي واثقة تماماً من رغبتها في العيش معه؟ مرة جديدة رأت مستقبلها قاتماً وفارغاً إذا تخلت عن رادولف. ومن جهة أخرى هي لا تستوعب فكرة الحياة غير المستقرة التي يعيشها الغجر. نظرت إلى زوجها متوسلة وتمتمت:

- أرجوك يا رادولف، أطلعني على الخبايا. فأنا زوجتك ويحق لي أن أعرف شيئاً عنك.

هز الغجري رأسه موافقاً بدون أن يفهم منه ما يرضي فضول زوجته بل قال:

- لنركز اهتمامنا الآن على وجبة العشاء سيما وأنها الأولى لنا في مثل هذا المكان الرائع. لم تجد ابتسامة رادولف في إزالة خيبة زوجته لأنه تهرب من الموضوع. والألم أصبح الآن أشد وقعاً منه في الماضي كونها صارت أسيرة حب هذا الرجل، وأصبحت متحرقة لكشف حقيقته.

بعد الكافيار جاء دور شرائح اللحم المشوي التي حضرها الزوجان في المطبخ الكبير بعد أن جلباها من الثلاجة الكبيرة المحتوية على الكثير من اللحوم وأنواع الطيور الشهية. وقد برر رادولف وجود

هذه الأطعمة بوجود السيدة وايت الأرملة الطيبة التي تهتم بشؤون المنزل.

- أنت تحب السيدة وايت بطلباتك المتعددة يا راندولف.

- السيدة وايت راضية فهي تجد في الأسرة تسلية تنسيها وحدتها. كما أننا بحاجة لهذا الترف بعد طول التنقل من مخيم إلى آخر.

- ولكنك تحب حياة الغجر، أليس كذلك؟

- العادة تسهل كل شيء، وتجعل المستحيل معقولاً. ولا أخفي عليك سراً إذا قلت إني أحب التمتع بالحرية التي توفرها حياتنا الغجرية.

- ولكن حياتكم مضجرة إذ لا عمل فيها ولا نشاط.

- ليس كل الغجر بالضرورة عاطلين عن العمل. فهم يصنعون بعض أدوات الطبخ ويتعاطون التنجيم وما إلى ذلك.

علقت المرأة على كلام زوجها بسخرية:

- ماذا يفعل رجال قومك سوى شحذ خناجرهم وتلميعها؟

لم يستطع راندولف الإجابة على هذا السؤال المحرج، بل اهتم بصب الطعام وإحضار عصير البرتقال. ولين الخائبة تتحين فرصة أخرى لاستجوابه.

انتهى الزوجان من تناول الطعام فسأل الغجري:

- هل أعجبك الطعام؟

- كان رائعاً، شكراً.

طغى على الجو مسحة من السحر والود. ولم تفكر لين بالمشاكل التي تفسد عليها روعة الساعة بل طرحتها جانباً لتنعم بمباهج فرح نادرة.

بعد العشاء تناولا القهوة في غرفة الجلوس ثم اقترح راندولف أن يخرجا لتنشق الهواء المنعش. وافقت لين على الفكرة وإن اعتراها على الأثر بعض الخجل:

- ولم لا نخرج يا راندولف فالجو جميل.

- انظري إلى القمر الشع فوق البحر وإلى النجوم... هناك الملايين منها.

سحرت لين بجمال الطبيعة وبابتسامة راندولف الساحرة. الآن أدركت مدى وسامته وأنها صارت تنظر إليه كرجل مهذب لا كغجري متشرد مثلما اعتبرته في السابق. في هذه الليلة حصلت لين على مملكة رسمتها في خيالها، مملكة تعيش فيها مع فارس أحلامها وفي مكان لا تخلقه إلا الأحلام... ولكن حلول الغد سينهي هذا الحلم... لا بأس فالغد بعيد جداً.

تنزها في الحديقة والمراعي المحيطة بالمنزل والمغمورة بنور القمر، يداعبهما نسيم منعش يحمل معه رائحة البحر ممزوجة بعطر الأزهار القوية بألف لون ولون.

تنشقت لين الهواء بنهم وأفكارها عابقة بالعذاب بفعل الجو المنعش وهي مسرورة بذلك لأنه يجعلها بعيداً عن همومها في سمفونية عذبة الألحان.

سألها راندولف كي تخرج من صمتها:

- هل أنت دافئة؟

- نعم.

- البحر هادئ، الليلة ويشجع على السباحة.

- أنت تسبح إذن.

أجاب راندولف متعجباً لسؤالها:

- بالطبع.

لم تسأله لين هذه المرة كيف يجيد السباحة مع أن الغجر لا يجيدونها عادة، بل تجاوزت فضولها كي لا تفسد النزهة الليلة.

- ما رأيك يا عزيزتي بالصعود نحو التلال؟

- أتعرف الطريق جيداً؟

- لا تقلقي فأنا معتاد على المنطقة وأستطيع السير في مسالكها مغمض العينين.

أتيحا لين بطرح الأسئلة حول سبب معرفته التامة بالمكان؟ لا، فلا حاجة لإفساد السهرة الرائعة حتى وإن كان انسجامها مصطنعاً بعض الشيء، لذا يتحاشى كلاهما عن الحقيقة.

انهيا نحو التلال في طريق مغطاة بالعشب الطري. والقمر بدأ يختفي، خلف بعض الغيوم فصار الضوء مضمحلاً بظلال رقراقة تتراقص على البساط الأخضر الفسيح.

وضع رادولف يد زوجته في يده فشعر بدفء جسمها ونسيت أن في العالم أحزاناً ومصائب، وأصبح كل شيء جميلاً جمال هذا الحلم المجنون. حبذا لو ينقلب الحلم حقيقة ويصبح فرح هذه اللحظات سعادة دائمة.

تفرقت الغيوم فعاد القمر إلى جود عطائه يرمي أنواره على قمم التلال وسفوحها فتنعكس على حبيبات الندى التي تكلل رؤوس الأشجار والحدائق وريقات العشب. والنسيم الليلي المشبع بالشذى يشترك مع الطيور الليلية في أداء أجمل الألحان وأروعها.

بعد ساعة من المشي قرر رادولف العودة. في الطريق تساءلت لين ما إذا كانت الساعة التي قضتها على الغداء إلى جانبه هي وليدة ساعتها وستزول مع الفصلت. والأكيد الآن أنها ترغب في الارتماء بين ذراعيه لتدفئ قلبها بحرارة اللهفة والهوى.

وصلا إلى المنزل ورنين الهاتف يملأ أرجاءه. فهرع رادولف ليجيب. بقيت لين في الخارج تتأمل الهضاب الواسعة والبحر الرحب تتكسر أمواجه على الشاطئ، وتتطاير حبات الماء لآلئ تستحم بنور القمر. وفجأة أدركت أن في وسعها الهرب والابتعاد أكثر من غيرها في هذه المنطقة الشاسعة بحيث يستحيل على الفجري أن يجدها في الظلام. حقيبتها معها وكذلك المال، فما عليها إلا أن تركض وتنال حريتها... الحرية أصبحت على قاب قوسين أو أدنى منها، فماذا تفعل؟

ما زال رادولف يتكلم على الهاتف ويبدو أنه لن ينتهي من المكالمة

بسرعة. من على الطرف الآخر من الخط؟

لو كانت المكالمة موجهة لصاحب المنزل لانتهت بسرعة كون الفجري سيبلغ السائل أنه ليس موجوداً هنا. المكالمة هي لرادولف إذن.

أصغت المرأة بانتباه ولكنها لم تتمكن من الفهم لأن زوجها كان يتحدث بصوت منخفض. كيف ترتكب مثل هذه الغلطة وتترك زوجته حرة بدون حراسة وتقدم لها بذلك فرصة الفرار على طبق من فضة؟

وقفت لين كالبلهاء، مشدوهة لا تدري ماذا تفعل. الرحيل مفتوح أمامها على مصراعيه فلماذا لا تستغل الفرصة؟ لماذا التردد؟

أخيراً ابتسمت وانتعشت عيناها وعلمت أن هذه الليلة الشاعرية يجب أن تستمر حتى آخر فصولها لأن فيها بعد الكثير من السعادة. ألقت نظرة على العالم في الخارج ثم دخلت وأقفلت الباب بهدوء.

استدارت لين لتجد زوجها واقفاً يحدق فيها وعلى وجهه علامات الاستغراب والدهشة. وقفت المرأة جامدة لا تقوى على الحراك إذ علمت نوايا زوجها. ولكنها لا تأبه بها لأنها مصممة على خوض غمار كل ما تقدمه هذه الليلة الاستثنائية. وقفا ينظران إلى بعضهما مستمتعين بالسكوت لأن الكلام مهما كان بليغاً عاجز عن التعبير عما يختلج في النفس ويفيض في القلب. أخيراً استطاع الرجل أن يتلفظ بكلمة:

ـ يا حلوتي...

مد يده إلى زوجته وأمارات الفرح تقفز من عينيه ويذهب من قساوة ملامحه البدائية ذات الجمال الوحشي الحالم.

تجاوبت لين لدعوته بابتسامة رقيقة كفيلة بإذابة الصخر وأكثر القلوب تحجراً. ومدت يدها بخجل إلى يد زوجها.

ـ كان بوسعك الهرب بسهولة... ولو فعلت لما تمكنت من العثور عليك أبداً.

قال راتولف ذلك وهو يكاد لا يصدق أن لين أضاعت هذه الفرصة السانحة وفضلت البقاء معه على استعادة الحرية. وأدركت المرأة عندها أنها لو رحلت لما غضب زوجها بل لأحس بالفراغ بعد ضياع شيء ثمين.

تحولت عبارات الدهشة في عينيه الى حنان فائض وملأ قلبها شعور واحد: الحب. حب حملها بعيداً عن الهموم الأرضية، والمآسي رفعتها من مستوى الفاقة الى مستوى الشعور. حملها راتولف كالريشة بين ذراعيه واتجه الى غرفة النوم.

- لين... ما سبب الذي يجري بيننا الآن؟

وأضاف متراجعاً:

- لا أهمية لذلك فحسبنا ان ما يجري رائع...

قاطعه رنين الهاتف فوقف متردداً. أيجيب أم ينسحب لرغبته بالبقاء قرب زوجته؟ كرهت لين صوت الهاتف وتمنت لو يخرس حتى لا يسلبها راتولف. وكم كان سرورها عظيماً عندما قرر الغجري تركه يرن والبقاء معها.

- فليذهب الهاتف الى الجحيم لأني لست مستعداً لمغادرتك الآن يا حلوتي.

تنفست المرأة الصعداء وزادها قراره ثقة بنفسها وبمكانتها عند زوجها.

هل فهم راتولف أنها غارقة في حب حتى أذنيها؟ هل أدرك أن سلطته عليها لم يعد سببها السيطرة بقدر ما صار الحب؟

- راتولف... اسمك غريب ولكنه يعجبني.

- اسمي ايرلندي قديم جداً.

- أليس اسماً غجرياً؟

- لا.

تردد الرجل طويلاً قبل أن يكمل:

- في الحقيقة هو اسم كان يطلقه نبلاء ايرلندا على أولادهم.

- وكيف اتفق أن غجرياً حصل على اسم ايرلندي يعود الى النبلاء؟

- لا أعتقد أن في ذلك حرية.

دفعها الفضول الى مزيد من الأسئلة.

- وهل هناك الكثير من الرجال الغجريين يحملون نفس الاسم؟

- أظن أني الوحيد الذي يحمله.

- لم تذكر لي شيئاً عن والديك يا راتولف.

قال وفي صوته حزن عميق:

- كلاهما ميتان.

غرقت لين في ذراعيه أكثر ووضعت يدها الناعمة على خده.

- أخبرني عن والدتك.

- ماتت أمي وهي تضعني.

- أذاً ان هذا الأمر مؤسف حقاً.

لم ينجح راتولف عندما علق على كلامها في اخفاء الأسى من نبرته.

- ان موتها المبكر لم يشعرني بفراغ فقدانها، فلو ماتت وأنا فتى يافع مثلاً لكنت أحسست بحزن أكبر.

- أنت وحيد في هذه الدنيا إذن.

- ولماذا استنتجت أني وحيد في هذه الدنيا؟

- ألديك اخوة أو اخوات؟

لم يجب الغجري على سؤالها مباشرة بل اكتفى بالقول:

- كنت أعتبر نفسي وحيداً حتى تزوجت.

- أنت لم تجب على سؤالي.

- حسناً يا عزيزتي، لي أخ واحد.

- اني أحسدك على ذلك. أين يعيش أخوك؟

- في أحد المخيمات.

- الا تراه أبداً؟

أجاب راندولف بحدة وكأن الموضوع بات مزعجاً:

- لم أره منذ مدة طويلة. كفانا كلاماً ولنخلد إلى النوم.

- لا أشعر برغبة في النوم.

- لماذا؟

لا تقوى لين على البوح بالسبب الحقيقي الذي يجعلها تتمنى لو تمتد هذه السهرة إلى الأبد. والوقت الراهن هنا هو الواقع الثمين من أن يهدر بالنوم.

- لست تعبة.

قالت ذلك وأكملت بسرعة حتى تمنعه من التعليق:

- للأسماء القديمة معانٍ فما معنى راندولف؟

- أخشى أن لا يعجبك معناه فكلمة راندولف تعني الذئب السريع.

لقد كان الغجري بالفعل ذئباً سريعاً لما خطفها على حصانه واختطفها. نظرت لين إلى الجرح فرأت أثره واضحاً على خده وتمنت ألا يزول أبداً.

- أعتقد أن اسمك يعجبني قليلاً.

- لا أنوي مضايقتك الآن لأني أريد أن أنام.

طبع قبلة ناعمة على جبينها وأطفأ النور ضاماً إياها بين ذراعيه. وما كانت إلا دقيقة حتى غط في سبات هانىء وعميق.

أفاق الزوجان باكراً وجلسا على الشرفة الواسعة يتناولان طعام الفطور. وبعد قليل رن جرس الهاتف. هب راندولف من كرسيه معلقاً:

- لا شك أنها المكالمة التي كان يجب أن أجيب عليها بالأمس. أكملي فطورك يا عزيزتي فلن أغيب كثيراً.

عاد راندولف بعد قليل متجهم الوجه كأن ويلاً كبيراً قد حصل فسألته زوجته قلقة:

- ما الأمر؟ هل هناك ما يقلق؟

- لا شيء يهمك يا لين.

- ولكن كيف تتلقى مكالمات إلى هذا المنزل ولا أحد يعلم بوجودنا هنا؟

- أنت مخطئة في تكهناتك والدليل على ذلك أني تلقيت مخابرة البارحة.

- مخابرة من الأشباح على ما أظن! لماذا تحيط نفسك بهذه الهالة من الغموض وبهذا الحجاب من الأسرار؟ أشعر بنفسي حيال ذلك كسائلة غريبة لا زوجة!

لم تلحظ المرأة أن عيني زوجها الغاضبتين تدلان على عدم رغبته في الكلام وعلى مزاجه المعكر، بل دفعها قلقها عليه إلى المزيد من الإلحاح فقال الغجري بحدة:

- ألن تكفي عن الأسئلة السخيفة؟

بدأت الأفكار السوداء تلعب في رأسها من جديد. أيكون سبب تكتمه الشديد حيال اتصالاته نشاطات غير مشروعة يقوم بها؟ وقد تكون هذه النشاطات مصدر المال الوفير الذي يملكه والذي يخوله القيام برحلات طويلة والإنفاق على الثياب الأنيقة. كما هناك الحصان الأصيل الذي استلمه في الغابة، ووجوده في هذه الدار الفخمة... أمن المعقول أن يكون المنزل ملكاً له وهو مجرد غجري؟ أسئلة لا تعرف لها جواباً واضحاً...

كانت غارقة في أفكارها فانتشلها صوت زوجها:

- أنا مضطر للخروج يا لين. أتعديني بأنك لن ترحلي؟

ضربت لين الأرض بقدمها وقالت مصرة:

- سأرافقك!

سكتت فجأة بعد أن رأت الرفض القاطع في عينيه. ثم عدلت بعد أن خطرت لها من جديد فكرة الفرار. برغم الساعات اللذيذة التي أمضتها وبرغم بزوغ فجر الحب في قلبها، فهي امرأة تنتمي إلى محيط اجتماعي مختلف تماماً عن البيئة الغجرية. فالحب مهما قوي

وعمق لا يستطيع أن يغير من واقع الحال شيئاً ويجعلها تنسجم في حياة راوولف وقومه. فحلوته لا بد ستختفي مع الوقت ومع استعدادها لمرارة الواقع والحياة اليومية.

احتاجت لين الى شجاعة فائقة لتحبس دموعها. ولكن شجاعتها خانتها عندما أعاد عليها زوجها السؤال نفسه.

- أتخبريني بأنك لن ترحلي؟

أمام ترددها لم يجد الفجري حلاً سوى حملها الى غرفة النوم وحبسها هناك. وفي الوقت الذي سمعت فيه لين صوت المفتاح يدور في القفل خطرت صوب النافذة. غلطة جديدة ارتكبها راوولف بسبب انشغاله وقلقه الشديدين. ما عليها الآن سوى انتظار رحيله لتخرج بكل سهولة من النافذة، فالبيت أرضي ولا خطر من النزول عبرها. لكن لين لم تترو وتنتظر ذهاب زوجها فسرعان ما ارتدت معطفها وأخذت حقيبة يدها ثم فتحت النافذة وأصبحت في الخارج.

كانت أشعة الشمس ساطعة والبحر ساكناً والطبيعة هادئة. ولم تستطع لين محو ذكرى التفاصيل الحلوة التي تسربت في الليل الثالث لتضيء ظلام حياتها. عاد كل شيء الآن الى سابق عهده. وها هي تنفذ عملية الفرار التي غابت عن فكرها في ساعات السعادة الماضية.

آه لو كان راوولف رجلاً عادياً كغيره من الرجال! رجل يشغل وظيفة محترمة ويهتم بتأمين الرفاهية والحنان لزوجته وأولاده...

انهمرت الدموع من عينيها وكانت انفعالاتها تدفعها الى العدول عن الهرب والمغامرة في البقاء زوجة للفجري قانعة بمصيرها، لكن الغلبة كانت في النهاية للعقل والمنطق. فتابعت المرأة طريقها بين شجيرات الحديقة لتجد منفذاً يقودها الى الطريق العام. وبينما هي تمشي بين الشجيرات سمعت رنين الهاتف في المنزل ووقع قدمي راوولف يسرع للاجابة. عندها دفعها حدسها للعودة الى المنزل فجلست القرفصاء تحت نافذة غرفة الجلوس لتستمع الى الحديث.

- ... أحسنت يا أولاف وستنال مكافأة عظيمة مقابل ذلك.

أقلت انه أتى الى هنا؟ أخيراً سأتمكن من... لم أستطع لين فهم بقية الجملة التي سمعت.

- أنت بخشا يا صديقي ومتأكداً من أن الأمر سينتهي به في الحبس. لم أستطع التحدث واقناعه.

وساءت الكلمات من جديد فصحت لين من الغضب. كانت تتوصل الى معرفة الحقيقة لولا خطيها الشيء. وفجأة سمعت صوت زوجها يقول لأولاف:

- لا حاجة لتحركي من هنا الآن. لقد اتصل بي راوول منذ بضع دقائق واخبرني أن بورل كان في مخيم ويحتفي في السهل المجاور، فقررت الذهاب لملاقاته هناك. أما الآن وقد اخبرتني أنه أتى الى هنا فسأنتظره وأقابله.

توقف راوولف مفسحاً المجال لصديقه بالكلام. وفاتت لين لم تسمع ما يقوله الفجري الكهل لزوجها الذي عاد الى الكلام بصوت منخفض فلم تتمكن المرأة الا سماع جمل غير مترابطة.

- أرجو الا يعلم بوجودي هنا... جاء مرة مع فتاته... صحيح والا لما عرفت... لا أعرف كيف أرد لك الجميل يا أولاف.

تساءلت لين عن معنى هذا الكلام وهي تنتظر زوجها ليعاود الحديث. لكنها تأكدت من أمر واحد وهو أنها ستبقى حتى يأتي الدعم بورل عليها لتنبع ظروفها ويصدق الحدس الذي انبأها بأن مصيرها ومستقبلها يتعلقان بقدوم هذا الرجل.

- ... كان علي الاخذ بنصائحك يا أولاف والكف عن مطاردته، خصوصاً بعد أن أصبحت مثقلاً بالمسؤوليات. خفق قلب لين بشدة اذ فهمت أنه يعنيها بالكلام عن المسؤوليات.

- ولكنك تعلم يا أولاف اني لا أقبل بالهزيمة. وأنا متفائل بأني اذا تمكنت من لقاء بورل والتحدث اليه فستسوى الامور ويصبح كل شيء في نصابه.

أقفل الفجري الخط بعد قليل فقررت لين العودة الى غرفتها قبل

أن يكتشف زوجها غيابها. ولكن الحظ أبى إلا أن يوقعها في مشكلة جديدة. فما كادت تخطو حتى تعثرت بغصن شجيرة وسقطت بقوة فارتطم رأسها بالأرض وصاحت من الألم. لم تمر ثانية على سقوطها حتى كان رالوف إلى جانبها فحملها إلى المنزل على جناح السرعة.

- آه، رأسي!

أحست لين بالدنيا تدور حولها وبكل شيء أمامها يرقص ومع ذلك لمحت في عيني زوجها مزيجاً من الغضب والأسى. لقد غطاه بعد ما تأكد من أنها لن تحاول الفرار بفعل الانسجام التام الذي ساد بينهما في الليلة الفائتة. انتظرت المرأة توقع الرد القاسي على عملها لكن الغجري ضبط أعصابه واهتم بإسعافها.

- كدمة لا بأس بها على الإطلاق. سأحضر شيئاً يريحك.

نظر إليها وأضاف:

- لا ريب أنك مصابة بصداع من جراء الصدمة.

- نعم يا رالوف.

- لماذا فعلت ذلك؟

- لا تعتقد أني كنت أنوي الفرار... على العكس.

لم ينتظر الغجري سماع المزيد فقاطعها حانقاً:

- لا تكذبي! ماذا عن حقيبة اليد هذه؟

فتح الحقيبة وتفحص محتوياتها رامقاً زوجته بنظرات شريرة. كيف تفسر له ما حدث وهي في الحقيقة كانت تنوي الفرار لو لم تسمعه يتكلم بواسطة الهاتف مع أولاف...

قالت بصوت ضعيف والألم في رأسها لا يكاد يطاق:

- حبذا لو أستطيع أن أشرح لك ما حدث!

- من الواضح أنك لست على استعداد لشق طريق الحياة برفقة غجري من حثالة المجتمع.

أخذ رالوف يقول بشبه همس:

- كان علي أن أعلم أن المسألة ستصل إلى طريق مسدود لا محالة.

- ما الأمر يا رالوف، أخبرني.

أخفت نبرة التوسل في صوتها الحب الجارف الذي يكنه قلبها لهذا الرجل الغامض الواقف أمامها والمرارة تكاد تخطفه على رغم جبروته وسطوته.

- ما الفائدة من اطلاعك على الحقيقة ما دمت ستطرديني وتعتبريني غير أهل بالعيش وإياك؟

أين التعالي الذي قابلها به في السابق؟ أين العجرفة والكبرياء؟ تحول غضبه إلى ذل وصلفه إلى مهانة. ولما حاولت لين، مدفوعة بشعور القلب، تطييب خاطره أسكتها بإشارة من رأسه.

- لا تحاولي إصلاح ما فسد. سأعرض عليك خطة أرجو أن توافقي عليها ولكن بعد أن تتناولي هذه الحبوب وتنامي قليلاً.

نهضت لين من الكنبة وأسرعت نحو غرفة النوم خائفة وهي ترغب برمي زوجها الغامض بأحد التماثيل لعله يخرج عن صمته المطبق.

- ما بك يا لين؟

- بالله عليك! أطلعني على الحقيقة فهذا من حقي.

- أي حق هذا؟

- أنا زوجتك ولي الحق...

قاطعها بضحكة ساخرة تخالطها اللوعة:

- لا أستطيع أن أفضي إليك بأسراري ما دمت لا تعتبرين نفسك زوجتي.

- ولكنك كنت على وشك البوح بها البارحة.

- كنت أفعل لأني كونت فكرة خاطئة عنك. شعرت أن نظرتك إلي تغيرت وأن كرهك لي خف وأننا قد نستطيع...

توقف فجأة وناولها الدواء قائلاً:

- دعينا من هذا الموضوع وتناولي الدواء ليخف الألم.

- لا أخف على قلب الموت.

- هيا إلى السرير فأنت تعبة.
- لا أريد أن أنام!
هددها بلهجة آمرة:
- لا تجبريني على حملك إليه بالقوة!
تناولت المرأة الدواء وتوجهت إلى سريرها كي لا تفعل ذلك مكرهة وقبل أن يخرج من الغرفة سألته:
- لماذا لن تبوح لي بكل شيء؟
- لأن تصرفك إلي لم تتغير مع الأسف. والدليل على ذلك أنك حاولت الفرار. فلنكن صريحين ونعترف بأني لست مؤهلاً لأكون زوجاً لك، على رغم أنك معجبة بي.
لم ترضَ أن تقرّ بهذه الحقيقة فصاحت معترضة:
- معجبة بك؟ يا لك من مغرور!
فوجئت المرأة بأن زوجها لم يغضب بل قال لها بهدوء جعلها تخجل من كذبها:
- لقد قلت لك أنك معجبة بي وترتاحين لوجودي معك. ولكنك غير قادرة على التأقلم في حياتي الاجتماعية وعلى التخلص من عقدة التفوق.
- حسناً، أعترف بأني أشعر نحوك بالتفوق اذا كان هذا يرضيك.
- اعتراف غير مقنع تماماً. سنجد فرصة أخرى للتصارح أما الآن فإلى النوم!
توجه إلى النافذة وأخرج من جيبه قفلاً ركزه عليها بطريقة لم يعد ممكناً معها فتحها بدون نزع القفل.
- آسف يا حلوتي ولكني مضطر لفعل ذلك.
- أمن العدل أن تجعلني سجينة هذه الغرفة؟
تابعت متوسلة:
- أعدك بأني لن أهرب.
- لن أعود عن قراري فالتجارب السابقة لا تشجعني على الثقة

بك.
خرج رانولف من الغرفة وترك زوجته وحيدة في سريرها تنتظر المجهول. لكن الألم والتعب تعاونا عليها فأغمضت عينيها ونامت.

٩ - الغريب

أفاقت لين مذعورة على صرير باب غرفتها يفتح ورأت رادولف يطل برأسه فسارعت إلى القول:

- أدخل فأنا بخير ولم أعد بحاجة إلى النوم. كم الساعة الآن؟
- الواحدة ظهراً. كيف تشعرين؟

دخل رادولف فعلمت لين من ملامح وجهه أن بوريل لم يأت بعد.

- صرت أحسن بكثير فالصداع زال والحمد لله.
- أتستطيعين تناول الطعام؟

استوت المرأة في سريرها وتلاقت نظراتها ونظرات زوجها. ولم تمانع في أن يتأمل الغجري مفاتنها بحرية.

- أعتقد أن فكرة الأكل صائبة جداً. ماذا لدينا اليوم؟
- لدينا بعض السمك المشوي.
- أعتقد أنك تعد لائحة لما تستعمله لتسدد ثمنه لصديقك، أليس كذلك؟

أجاب الغجري مبتسماً:

- لا، ما علي سوى سرقة هذه الأغراض فصديقي لا يعرف ماذا يملك لكثرة غناه.
- ألن تستطيع التخلي عن عادة السخرية والتهكم؟
- ألن تستطيعي التخلي عن عادة طرح الأسئلة ما دمت تعلمين طريقة إجابتي عليها؟

عقدت لين حاجبيها متذمرة:

- يا لك من لغز محير! اكتشفت أنك ذو شخصية مزدوجة.
- بالله عليك أخبريني عن هذا الاكتشاف العظيم!
- أنت تتحول مثلاً من حمل وديع إلى وحش مفترس!

رفع رادولف يده إلى الجرح الذي ما تزال آثاره بادية في وجنته وقال:

- وحش مفترس! لقد قادتني تصرفاتك الخرقاء إلى أفعال ما كنت أتصور أني سأرتكبها يوماً.

ارتبكت لين لأنها لا تستطيع كتم شعور بالذنب كلما رأت ذلك الجرح في وجه رادولف، وإن يكن ذلك الشعور لا يعني أن الغجري لم يستحق الضربة ... لا بل كان يستحق أكثر! إنه رجل غريب الأطوار فلما تبعها بعد تعطل سيارتها لم يخطر ببالها أنه سيحاول الاعتداء عليها ولكنه فعل! ولم يحبط محاولته سوى تدخل صديقته الغجرية التي اختفت منذ ذلك اليوم ولم تر لين وجهها في أي من المخيمات التي زارتها مرغمة في المدة الأخيرة. لا شك أن رادولف تخلى عن صديقته بسهولة، رغم أنه أظهر طاعة عمياء تجاه أوامرها القاضية بالابتعاد عن لين المسكينة.

ذكرها راؤول بأن الغداء جاهز.

- سأحضر الطعام إلى هنا إذا كنت تفضلين ذلك.

أومأت لين بالنفي وأسرعت بالنهوض لأنها لا تريد تفويت فرصة لقاء الرجل المنتظر: بوريل . . . إذا سمح لها زوجها بذلك.

كان الزوجان الشابان جالسين إلى المائدة لما سألت لين:

- أريد مناقشة الخطة التي تحدثت عنها؟

لم يجب الغجري على الفور بل نظر إلى ساعة الحائط قلقاً من تأخر بوريل في الوصول.

- سنبحثها لاحقاً بعد أن نستقر أوضاعنا.

أيقنت لين أن لا جدوى من متابعة الموضوع ما دام راؤول لا يرغب في إطلاعها على شيء. ماذا عنى باستقرار أوضاعهما؟ تنهدت معلنة فشلها في حل جزء ولو صغير من اللغز الكبير الذي يحيط بالغجري ذي الشخصية الغريبة.

عاد راؤول إلى الكلام وفي صوته نبرة تؤذن بالقلق:

- لا أعتقد أنك تمانعين بقاءنا ليلة أخرى هنا.

- أفضل ذلك على وجودي في مخيم غجري.

هز راؤول برأسه موافقاً كأنه يعتبر كلامها صحيحاً ويشاطرها كرهها للمخيمات.

- وهكذا سنتمكن مرة أخرى من تناول العشاء كأناس متمدنين.

- أحيانا عندما تتكلم، لا أراك غجريا يا راؤول!

- ومع ذلك أنا غجري ابن غجري.

تفحصت لين لونه الأسمر، شعره المتجعد، عينيه السوداوين اللتين تعلمت قراءة ما فيهما من أحاسيس: الغضب والرغبة، الهوى الجامح الذي تلظت بناره لما أجبرها على الزواج منه وأمضت معه شهر عسل مراً في تلك العربة القديمة. ومؤخراً تعلمت قراءة الطيبة، الندم، الأسف والحزن العميق في عينيه السوداوين. أما في هذه اللحظات بالذات فقرأت فيهما تحدياً كأن راؤول ينتظر منها أن

تحاول إنكار كونه غجرياً أنه يعلم ما يدور في خلدها من أسئلة محيرة لكن لين تجاوزت التحدي وقالت:

- ما سبب مكوثنا هنا ليلة أخرى؟

كانت تعلم أن السبب هو رغبة راؤول بلقاء بوريل، الذي لم يحضر اليوم. وبالفعل لم يخب ظنها عندما أجاب:

- أنا أنتظر شخصاً هنا.

تظاهرت لين بعدم معرفتها بذلك فتعجبت معلقة:

- تنتظر رجلاً أو امرأة؟

لم يستعجل راؤول بالإجابة بل صرف وقتاً طويلاً في تذوق لحم السمك الشهي:

- أنتظر رجلاً.

- من المستغرب أن تستضيف زواراً في هذا المكان!

قالت لين ذلك وعيناها تنظران إلى الأرض مخافة أن تفضحاها ويكتشف راؤول أنها تعلم أكثر مما يجب.

- لا يحرجني ذلك يا عزيزتي فهناك الكثير من الأمور التي تعتبرينها مستغربة ومستهجنة، وأعدك بأنها ستتوضح عندما أطلعك على خططي.

ماذا حدث لصوت راؤول الآمر؟ لماذا هذا الارتجاف الذي يخفي خوفا من أن ترفض لين الخطة المذكورة؟

- ما تفعله مجرد تسكين للألم وتأجيل للمشكلة، فأنا ضقت ذرعاً بهذه الأسرار!

- الخطأ خطأك . . . لو لم تحضري حفلة التجمع لما حصل كل ذلك.

لم تعرف لين كل هذه المرارة والحسرة في صوته قبل الآن، ولم تر شفتيه مرتعشتين ويديه ترتجفان. تلك الكبرياء نفسه لم تفلح في إخفاء توتره وانفعاله وكأن مستقبله معلق على ما سيحدث في الساعات القليلة المقبلة.

من جهتها حافظت لين على هدوئها وتكلمت يدفعها الحب المسيطر على جميع تصرفاتها وأقوالها:

- ألم يخطر لك أني غيرت رأيي فيك؟ لقد قلت ذلك تحت تأثير الصدمة والهلع! أليس الإنسان يقول أشياء ثم يندم، كما يفعل أشياء ثم يندم.

كانت تشير بكلامها إلى غلطتها الشريرة، غلطتها في نعته بحثالة المجتمع، وغلطته في ضربها وإرعابها. لا ريب في أن راندولف نادم على استعماله العنف وأنه لن ينسى ما فعلت بذاته بسهولة

أكملت المرأة حديثها والفجري يحدق فيها باستفهام:

- راجعت ضميري مراراً بشأنك. أقر بأن عندك ازدواجية في الشخصية وأن فيك جانباً سيئاً ذكرته مرة ولكنك تملك جانباً حسناً لا أنكر اعجابي به.

تبع ذلك سكوت تام، سكوت دهشة بحث خلاله راندولف عن معنى زوجته ليفهم أكثر. ولكنها هربت من نظراته وتكاد لا تصدق ما تفوهت به. كانت على وشك الاعتراف بحبها لا بل هي فعلت بطريقة غير مباشرة. إذ لا مفر من كون راندولف فهم ذلك من قولها هذا وتصرفاتها في الفترة الأخيرة.

أحست لين بالانكسار لأنها لم تستطع مقاومة الحب الذي نما في داخلها تجاه هذا الرجل. والذي بدأ الشعور بالانجذاب نحوه منذ أن رأته رغم أن لقاءها به حفل بالذعر والخوف. ورغم أنها تأبى فكرة العيش زوجة لفجري. عالمه البدائي وطبيعته الفطرية المتسلطة سيطرا على كيانها كالقدر المحتوم. ولم تنجح في الافلات من قبضتهما ومن نزعتها الاستقلالية.

عندما نظرت إليه أخيراً ووجدت ما وجدت في عينيه، علمت أن الأمر قد فصل وأنها مستعدة للمتابعة حتى النهاية ولتسليمه الدفة لقيادتها إلى حيث يشاء. قبلت بالعيش مع الفجري مهما كان راندولف ومهما فعل وأدركت أن ارتباطها به ليس آنياً كما تصورت. بل نهائياً.

أخذ الفجري يهز رأسه غير مصدق ما سمعت أذناه.

- أهذا صحيح ما تقولين يا لين؟ فهناك أمل كبير لنا؟

ظهر للين جلياً أن حملاً كبيراً نزل عن كاهله لما تكلم، وأن آفاقاً جديدة فتحت أمام عينيه. أيحبها راندولف؟ أيمكن أن يتخلى عن مجتمعه وأهله من أجل حبها؟ أمن الممكن أن يعيشا حياة طبيعية في منزل صغير ويتخذ راندولف مهنة شريفة يرتزقان منها ويربيان أولادهما تربية صالحة؟ عسى ألا تكون هذه الأفكار سراباً وأضغاث أحلام...

- لين، أتعنين ما قلت؟ ألن تحاولي الفرار والرحيل عني؟

لم يدم ترددها طويلاً وسرعان ما منت عليه بأحلى ابتسامة وقالت بصوتها الحنون:

- أعني كل حرف خرج من فمي. لن أتركك أبداً.

توقف الكلام عند هذا الحد. وأظهر الزوجان ارتياحاً عارماً بعد أن لاحت بشائر الأمل بحياة سعيدة هنيئة وإن يكن الأمر بحاجة لبعض التفاصيل البسيطة...

كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة بعد الظهر لما رن جرس الهاتف. ترك راندولف الرسائل التي كان يكتبها وأسرع ليجيب على المكالمة.

رأت المرأة زوجها ينفعل، يتجهم، ويقلق، غضباً أبيض. ثم يقول بصوت مخنوق:

- وهل ماتت؟ لم تمت ولكنها بحالة خطرة؟ يجب أن أعثر عليه قبل رجال الشرطة. يا أخي لقد لم يأت إلى هنا كما كان ينوي!

تملكها خوف شديد لا تعلم سببه وهي تراقب زوجها يستمع إلى محدثه بقلق عميق. وعلمت ما سيقوله بعد أن يقفل الخط.

- علي الخروج لبضع ساعات يا عزيزتي. أرجوك لا تطرحي علي أسئلة لأن الوقت لا يعمل لصالحي.

لا خوف عليك من البقاء هنا وإذا شئت أرسل لك السيدة وايت

لتحمي بك في غيابي.
- أستطيع مرافقتك؟
- لا يا لين فأنا لا أريد اقحامك في هذه المشكلة.
اقتنعت المرأة وقالت انها ستكون بخير وبانتظار عودته على أحر من الجمر.
- أرجو أن أتمكن من العودة خلال الليل. وفي أي حال سأكون هنا صباح الغد كحد أقصى.
طبع قبلة ناعمة على جبينها وأضاف:
- سيكون كل شيء على ما يرام بيننا قريباً يا ملاكي.
بعد ثوان معدودة أقلع بالسيارة بسرعة فهبت الأرض نحوها مرسلة سحابة من الغبار في الفضاء.
جلست لين وحيدة تحدق في البحر الأزرق الهادئ، اللألاء، تحت قرص الشمس الأحمر وليس لديها سوى أفكارها وتساؤلاتها لتؤنس وحدتها. من يكون بوريل هذا؟ لا ريب في أنه شخص مهم بالنسبة الى رادولف وانه ارتكب عملاً خطيراً يعرضه لملاحقة العدالة. . .
تنهدت بعد أن تعبت من التفكير وقالت بصوت عال:
- لماذا أتعب رأسي بهذه الأمور ما دمت لا أملك وسيلة ناجعة لمعرفة الحقيقة؟
تدريجياً بدأ الغسق يلف الدنيا ملوناً البحر بستار رمادي، والجبال بوشاح قرمزي ناعم. قررت لين ان تقوم بنزهة بعد العشاء الخفيف الذي تناولته. وبعد عودتها قعدت على كنبة مريحة في غرفة الجلوس المضاءة بنور شاحب يضفي عليها جواً شاعرياً يحتاج الى وجود رادولف ليكتمل! تمنت أن يكون لها يوماً بيت كهذا تعيش فيه مع من تحب، وربما تحققت أمنيتها متى تدبر رادولف وظيفة محترمة.
شغلت المرأة نفسها بقراءة بعض المجلات حتى لا تشعر ببطء الوقت وثقل الوحدة. كما استمعت الى موسيقى ناعمة تبث بواسطة مكبرات الصوت منتشرة في جميع غرف المنزل.

في حوالي العاشرة أوت الى فراشها بعد ان استبعدت عودة رادولف وما لبثت ان غفت على صوت حفيف الأوراق تتصادم بفعل النسيم العليل.
أفاقت لين من غفوتها مرتعدة على صيحة خفيفة فجلست في سريرها صامتة، تاركة النور مطفأ. ولما لم تتكرر الصيحة غفت من جديد ولكن لدقائق قليلة فقط لا غير. إذ ما لبثت ان فتحت عينيها على صوت جرار ينفتح. ربما عاد رادولف ولم يشأ ازعاجها فدخل لينام في غرفة أخرى. همت لين بالنهوض لملاقاة زوجها ولكنها عدلت كي لا تزعجه اذ لا شك في أنه مرهق جداً، ويحتاج للوحدة لاستجماع أفكاره والتقاط أنفاسه. بامكانها انتظار طلوع النهار حتى تطلع منه على الحقيقة التي وعد بكشفها حالما ينتهي من مهمة العثور على بوريل.
أضاءت لين المصباح الكهربائي الموضوع قرب سريرها ونظرت الى الساعة: الثالثة فجراً. لو كان معها كتاب تطالعه لأضاعت الوقت حتى تبدأ الشمس بالنهوض وتطرد ظلام الليل الدامس. أتذهب الى غرفة الجلوس وتحضر كتاباً من تلك الكتب المرصوفة على امتداد الجدران؟ تخلت المرأة عن هذه الفكرة مخافة ازعاج زوجها، فأطفأت النور وعادت الى النوم.
أفاقت لين في الخامسة وقررت الانتظار ساعة حتى ينهض لأن رادولف أوى الى سريره متأخراً. فلا ضرورة لايقاظه في هذا الوقت الباكر. بعد ساعة دخلت الى الحمام وأمضت وقتاً طويلاً تحت الماء الساخن تنعش جسمها بعد حادث وقوعها في اليوم الماضي. بعد ذلك جلست أمام المرآة تسرح استعداداً للقاء رادولف على أمل ان تكون مهمته انتهت على خير وتبدأ صفحة جديدة في حياتها. بعد أن تأملت وجهها جيداً في المرآة ووجدته مرضياً ارتدت برنساً أبيض وخرجت الى المشى تبحث عن الغرفة التي يحتلها رادولف.
في تلك اللحظة فتح باب احدى الغرف فاستدارت لين.

مبتسمة . . . ولكن الابتسامة لم تطل لما رأت المرأة وجه الغجري. ماذا حل به؟ عادت الى وجهه امارات الفظاظة والوحشية التي طالعتها بها في ذلك اليوم الذي لا تنسى حين حاول الاعتداء عليها . . .

همست لين مذعورة:

- رادولف . . . ماذا . . .

صمتت عندما رأت القميص مفتوحاً على صدر يغطيه شعر أسود كثيف. أكثف مما عهدته فيه! رفعت عينيها الى وجهه ووضعت يدها على فمها هول المفاجأة: من لين أن بهذه النظرات الرهيبة كشخص ظهرت امامه رؤيا أسطورية!

- رادولف أنت تخيفني . . .

كان مظهره كمجنون خطر وظنت لين ان الجانب الشرير طغى مرة أخرى على الشخصية المزدوجة وان رادولف الذي يقف أمامها ليس رادولف الذي تعرفه . . . ولكنها ما لبثت ان ابتعدت اكثر من ذلك وادركت أن هذا الرجل ليس زوجها!

توضحت الصورة امام عيني المرأة بسرعة البرق. فهذا الرجل هو بوريل الذي يبحث عنه رادولف، وهو بالطبع الشقيق الذي حدثها عنه زوجها وان يكن قد أغفل ان يذكر انهما توأمان!

تكلم الرجل أخيراً:

- ما الذي أتى بك الى هنا؟

تراجعت لين خائفة تفتش عن باب غرفتها لتقفل على نفسها هرباً من هذا الغجري الشرير. وكان هلعها شديداً فانعقد لسانها ولم تستطع التفوه ولو بكلمة واحدة.

كرر الرجل سؤاله وهو يقترب منها ببطء. واشتد خوفها ووجدت نفسها تصطدم بالجدار بدلا ان تقودها قدماها المرتجفتان الى الغرفة. فجحظت عيناها وشعرت انها عاجزة عن الحراك.

- رادولف . . . يبحث عنك . . .

ارتسم على شفتي الرجل ما ظنته لين ابتسامة وقال بخبث:

- سمعت أن أخي تزوج فتاة ولا شك انك الزوجة المحظوظة.

- أصبت.

- يا للصدفة! وأنا كنت أنال منك في الغابة لولا تدخل هذه الحقيرة ماغدا لانقاذك!

أطلق بوريل ضحكة شريرة وأضاف:

- يا لسخرية القدر كنت اعتدي على زوجة أخي!

مرر أنامله الطويلة في شعره الأسود الكثيف فزاد شكله غرابة واقترابا من الجن.

عاد الى الكلام والرغبة تخنق صوته:

- لكن ماغدا لن تستطيع انقاذك الآن ومنعي من التمتع بجمالك. سأصيب عصفورين بحجر واحد، أتمتع قليلاً وانتقم من أخي المحترم بعد كل ما فعله معي.

بدا بوريل مستعداً للانقضاض على فريسته الضعيفة ولين عاجزة عن الحراك بعد ان خانتها شجاعتها ولم تعد تقوى على الصراع. مرت في مخيلتها صور كثيرة ففهمت تقريباً كل ما حدث. حدقت في وجه الغجري جيداً وأيقنت ان الرجل الذي هاجمها عند تعطل سيارتها ليس نفسه الذي قابلته في الغابة على انفراد! سيما وان بوريل يحمل اثر جرح عميق في مفرق شعره بان واضحا عندما مرر يده فيه. لو انها انتبهت لهذا الجرح لكانت وفرت على نفسها وعلى زوجها الكثير من الآلام والأحزان! وفهمت من الآن لماذا كان رادولف يشير الى الحادثة الثانية لما كانت تكلمه عن الأولى! فكيف يذكر الأولى وهو لم يكن طرفاً فيها!

أمر بوريل بلهجة مفزعة:

- اقتربي مني يا امرأة! تعالي لأرى ماذا تحت هذا البرنس الجميل. لا بد أن شقيقي المحترم يقدم لك ما ترغبين من الثياب. أما أنا فلا أملك سوى نفسي أقدمها!

تبع ذلك ضحكة هستيرية ملأت أرجاء المنزل واقشعرت لين لها

أذنيها مستفسران.

- لتأمل يا حلوتي ان يطول غياب رادولف حتى اتمكن من الاسترسال بما أنوي فعله.

مد يده السمراء نحو لين فصارت المرأة على حافة الاغماء. ولما انقض عليها بدأت تقاومه بكل ما اوتيت من قوة. كان لبوريل قوة ثور هائج، لكن يأس لين دفعها الى الصمود وهي تنتظر حلول معجزة وهي، زوجها لينتشلها من براثن شقيقه المتوحش. ولكن زمن المعجزات ولى وشيئاً فشيئاً بدأت قواها تخور وعزمها على المقاومة يضعف الى ان هدأت تماماً وتمددت مستسلمة على الارض. حملها بوريل الى كنبة في غرفة الجلوس ولما هم بالقيام فعلته الحقيرة، دبت فيها قوة مفاجئة فرفسته على معدته وسقط على الارض مغشياً عليه بعد أن ارتطم رأسه بحافة الموقد. كان هذا آخر مشهد رأته لين مشوشاً وفقدت الوعي بعد ذلك...

١٠ - رادولف والحب الكبير

لما عادت لين الى وعيها وجدت ان بوريل ما يزال ممدداً على الأرض والدماء تنزف من رأسه.

- ماذا فعلت؟ هل قتلته؟

تغلبت المرأة على خوفها واقتربت تنحني الى قلبه تتحسس فيه الحياة. كم كان ارتياحها كبيراً عندما رأت ان قلبه لم يتوقف عن الخفقان. وعلى الفور شرعت تفتش عن رقم طبيب تتصل به هاتفيا ليأتي ويعتني ببوريل. ولكنها ترددت بعد ان تساءلت عن رغبة زوجها بحضور طبيب ليعالج اخاه الفار من وجه العدالة.

فوجئت لين بهدوء اعصابها وكأن الطبيعة اعادت اليها توازنها لما فقدت وعيها. رأت الموقف امامها واضحاً وتمكنت من اختيار الحل

الأنسب لهذا الموقف الحرج.

وهكذا، هرعت الى المطبخ واحضرت حبلاً اوثقت به يدي الغجري لتأمن شره اذا افاق. ثم تفحصت الجرح في رأسه وتبين لها انه سطحي ولا يشكل اي خطر على حياته.

فتح الرجل عينيه فجأة وحدق فيها باستغراب:

- من أنت؟ اين انا؟

شعرت لين نحوه بالشفقة ولم تستطع ان تكرهه رغم ما سببه لها حتى الآن من مصائب وويلات.

- انا زوجة اخيك يا بوريل.

تخبط الرجل محاولاً تحرير يديه ثم صاح:

- من اوثق يدي؟

- ألا تذكر انك هاجمتني فرفستك واوقعتك ارضاً فاصطدم رأسك بحافة الموقد؟ ولكن لا تقلق فقد داويت الجرح البسيط وسيلتئم سريعاً.

ظل الغجري صامتاً لبرهة حتى استوعب ما سمع.

- فشلت مرة اخرى في النيل من زوجة اخي. لو نجحت لكان انتصاراً باهراً...

توقف بعد ان داهمه الالم ثم سأل:

- اين رادولف؟

- انه يبحث عنك كما ابلغتك سابقاً.

قال بصوت قلق:

- هل سيعود الى هنا؟ لا يجب ان يجدني بأي ثمن. حلي وثاقي والا جعلتك تندمين على فعلتك حيث لا ينفع الندم!

حاول بوريل النهوض لكنه تعثر ووقع على وجهه، فنظرت لين اليه مشفقة على حاله. حزنت لرؤية رجل بهذه القوة والوسامة مطروحاً على الأرض اسير حبل واسير غرائزه الشريرة.

- ارجوك، حلي وثاقي!

كادت لين ان تذعن لتوسله ولكن عقلها سيطر على انفعالات قلبها الرقيق. فجلست على الكنبة تحدق فيه وتنتظر مجيء زوجها ليتولى حل معضلة اخيه.

ما اكثر الفوارق بين رادولف وبوريل. هذه الفوارق لم تلاحظها لين في السابق. الأول يتسم بأناقته ونظافته اما الثاني فقذر لا يعرف للنظافة معنى. كان يكفي لين ان تنتبه لأظافر بوريل حتى تعرفه من اخيه، ولكنها لا تلام لأنها كانت تتصرف مدفوعة بالخوف والرعب.

شخصت عينا بوريل بوجه لين فتذكرت كلمات اولاف عنه وعن الحياة التي اختارها والتي لا يحبذها رادولف العامل على مساعدته للتخلص من عاداته القبيحة.

- رادولف يريد ان يتحدث اليك في امور هامة.

- ماذا يريد مني اخي المحب؟ الا يكفيه انه سلب اموالي ونال الشركة بكاملها على رغم كوني اكبر منه؟ كان محظوظاً لما اخذه جدانا وتعهدا تربيته وتعليمه في حين بقيت شريداً في الطرقات. تصوري انهما منحاه اسم العائلة الكريمة!

سألته لين اذا كان يريد دواء مسكناً فرفض وتابع كلامه:

- لقد نزعاه من مخيم الغجر عندما كان في السادسة عشرة وترعرع كارستقراطي توافرت امامه سبل العيش الواسعة! ولماذا حصل ذلك؟ لأن جدي العزيزين شعرا بتأنيب الضمير لما لقيته امنا من ذل وهوان على ايديهما بعد ان نبذاها لأنها فرت مع رجل غجري وقعت في غرامه. ولم يكفهما طردها بل اعتبراها ميتة ورفعا علماً اسود على قبة القصر للدلالة على ذلك. وبعد موتها ارادا التعويض عن غلطتهما تجاهها فاستفاد من ذلك اخي العزيز.

ذهلت لين بعد ان سمعت القصة وعرفت حقيقة زوجها:

- رفعا علماً اسود... عن اي قصر تتكلم؟

- قصر آل دوغي بالطبع! الست بحاجة لأن اعلمك بانك متزوجة من سيد احد اكبر القصور ورأس احدى انبل العائلات في ايرلندا؟!

وهذا المركز من حقي لا من حق راندولف!

ـ اهدأ يا بوريل.

نصحته لين بالهدوء وهي ترتعد بشعورها غير قادرة على استيعاب الحقيقة الصاعقة. اللوحة التي رأتها في قصر دوقي كانت لوالدة راندولف. راندولف هو السيد دوقي صاحب القصر وسيد الأراضي! وهو اعاد الاعتبار الى اسم الشوفة واعاد تعليق اللوحة في القصر. ولكن لماذا اختاره جده دون اخيه بوريل الذي بقي متشرداً في المخيمات؟

تكلم بوريل بعد قليل بصوت منخفض وحزين:

ـ علي الذهاب قبل مجيء راندولف فأنا لم أقابله منذ مدة طويلة ولا ارغب في لقائه الآن! قصدت ان اسبب له الكثير من المشاكل والعار، وأورطت اعمالي الشرطة لمحاولة قتل مالدا ولكن اللعبة لا تربحنا! كم اردت في تلك اللحظة ان العق براندولف تحت شقيق القاتل المجرم الخطير بوريل!

توقف بوريل فجأة ونظر الى النافذة بينما هبت لين من مقعدها، بعد ان سمعت صوت السيارة، لتلاقي زوجها. نظرة واحدة الى وجهه كانت كافية لترى خيبة الأمل وفشله في اتمام مهمته، ولكن الزوجة سارعت الى الاعلان:

ـ عزيزي راندولف، بوريل هنا!

ـ بوريل؟ اين هو؟

دخل راندولف البيت راكضاً غير قادر على الانتظار لحظة اخرى ليبت الأمور مع شقيقه.

وعلى الفور سمع صوت بوريل يصيح من الداخل:

ـ لعن الله هذه المرأة فلولاها لكنت الآن اسرح على هواي في التلال الواسعة! اهلاً يا شقيقي المحترم! ماذا في جعبتك الآن وقد امسكت بي؟ قل ما عندك ودعني ارحل لأني لا ارغب في البقاء معك ثانية واحدة!

ـ من حقك ان تبقى هنا وان تبقى في القصر ما شئت.

توقف راندولف عن الكلام عندما دخل الى الغرفة ورأى اخاه ممدداً على الأرض.

ـ ماذا حل برأسك ويديك؟

وقفت لين تنتظر ماذا سيقول بوريل الذي اخذ يضحك كالمجنون وبريق الاثارة والشر في عينيه.

ـ لقد لحقت عروسك الناعمة يا شقيقي العزيز، ولو لم يخني الحظ لكنت امضيت معها وقتاً جميلاً.

رأت المرأة زوجها يغلي غضباً ويستعد لمعاقبة بوريل على ما فعله بأقسى طريقة.

ـ ماذا حدث يا لين؟ هل اصابك بوريل بأي اذى؟

لم يدع بوريل لين تجيب على السؤال فتولى المهمة عنها:

ـ لا تخف فالوقت لم يسمح لي بالذهاب معها حتى النهاية. اضعت الفرصة لما رفستني وطرحتني ارضاً!

وثب راندولف على اخيه والشرر يتطاير من عينيه فخشيت المرأة ان يفعل ما لا تحمد عقباه. وهرعت تمسك بيد زوجها متوسلة:

ـ ارجوك يا راندولف، لا تفعل شيئاً. اخوك يحتاج الى الشفقة لا الى المعاقبة.

رق راندولف لكلام زوجته وهدأ غضبه بعد ان نظر الى عينيها المليئتين بالرأفة والرجاء. وبذلك تحاشى استعمال العنف مع اخيه المذنب فاكتفى بالقول:

ـ اشكر الله يا لين على انك لم تصابي بأذى رغم انه ولا بد سبب لك بعض الخوف.

نظر راندولف الى اخيه واكمل بحدة:

ـ الفتاة مصابة بجروح بليغة!

ـ كنت آمل في موتها لما جئت هنا هرباً من الشرطة، ولكن سوء الطالع جعلني التقي بك في هذا المكان اللعين.

ـ أيقظني ارلاف انك أنت.. متى وصلت؟
لما ذكر بوريل ساعة حضوره نظر رادولف الى زوجته مستفهماً.
ـ سمعت ضجة في الليل ولكني ظننت انك وصلت ولم تشأ ازعاجي يا عزيزي.
هز رادولف رأسه بتفهم وقال:
ـ ولا شك انك اعتقدت اني شغلت غرفة اخرى للسبب نفسه.
ـ تماماً.
لم تزد لين ولكن بوريل، بعد ان اقنع شقيقه بحل وثاقه، تكفل بسرد كل ما حصل منذ الليلة الماضية وحتى الساعة. في ذلك الوقت كانت لين تراقب زوجها ينفعل ويعض على اسنانه ضابطاً نفسه حتى لا يهجم على بوريل ويسحقه.
بعد ان استمع الى سرد اخيه التفت الى زوجته وقال:
ـ كونت فكرة صغيرة عني الآن، أليس كذلك؟
ساهم الشعور بالذنب ودقة الموقف في دفع الدماء الى وجهها، فاضطربت وجنتاها بحمرة زادتها سحراً.
ـ اعذرني يا رادولف فتصرفاتي معك كانت مجحفة.
ـ لا اعتقد يا حلوتي ان تصرفاتي كانت افضل.
القت لين نظرة خاطفة على الجرح في وجه زوجها وقالت:
ـ سأنسحب الى المطبخ لأحضر طعام الغداء فلا بد ان لديكما الكثير لتقولاه.
ـ ابقي يا عزيزتي فوجودك هنا يوفر علي الكثير من الشرح والكلام.
ـ ولكنها مسألة خاصة لا علاقة لي بها.
ـ انت زوجتي ولن اكتم عنك شيئاً، فمن حقك الاطلاع على الحقيقة.
امتلأ قلب لين بالسعادة لثقة زوجها بها، في حين كان بوريل يستمع اليها مطأطأ الرأس مهيض الجناح، تملأ عينيه دموع الندم

والأسف على حياته الفاشلة.
جلست لين على كنبة قرب النافذة تستمع الى «محضر» الجلسة بين التوأمين المتحاربين.
بدأ رادولف الكلام بصوته الراقي ونبرته المتعالية:
ـ حسناً يا بوريل شاغل الدنيا وشاغل الناس! جبت البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عنك، ولكن لست الاحقك الآن. ما فات مات. ولا اطلب منك الآن سوى قبول نصف الشركة.
ـ لا! لن آخذ شيئاً قلت سرقتي!
لم يستطع بوريل هذه المرة كبت دموعه فانهمرت من عينيه بغزارة ادمت قلب لين.
توجه رادولف الى لين شارحاً كيف ورث وحده ثروة عائلته دون علمها: هربت والدته، وهي صبية يافعة بعد، مع شاب فقير وسيم كان مقيماً مع عشيرته في مكان قريب من القصر. وهكذا نبذها اهلها ولم يلتفتوا اليها رغم رسائلها المتكررة والتي اعلمتهم في احداها انها حامل. ولم تكن تعلم بالطبع ان في احشائها طفلين!
اسند رادولف ظهره الى حائط الموقد واكمل سرد الحكاية المحزنة:
ـ ماتت امي خلال الوضع بعد ان كان والدي قد هجرها لأنه ملّها، ومع الأسف الشديد عهد بتربيتنا الى عائلتين مختلفتين فافترقنا ونحن طفلان.
التفتت لين والدموع تقطر من عينيها لهذه القصة المحزنة:
ـ آه ما اقسى القدر!
علق بوريل على كلامها بحدة:
ـ ما القساوة لعلمي لا تخافيه! فقد وضعت في عهدة رجل وامرأة شريرين لم يكلفا نفسيهما مشقة تربيتي. بينما هذا الحظ رادولف الى امرأة طيبة رعته احسن رعاية واطلقت عليه اسم رادولف تيمناً بالاد. ولم تكتف المرأة بذلك بل اخذت تشيع انه ولد قبلي مع ان العكس هو صحيح!

- لم يستطع احد البت من هو الأكبر. وفي اي حال، الفرق بين ولادة توأم وولادة آخر لا تتعدى الثواني.

- لا تحاول اخفاء الحقيقة يا سيد راندولف. والزوجان اللذان رباني، نوبرا ولوسي، اكدا لي اني اكبر منك.

- لا استطيع مناقشة قولك يا نوبل لأني لم اكن واعياً ومدركاً عندها!

لم يقتنع نوبل بل اصر على قوله:

- انا اكبر منك!

تجاهل راندولف كلمات اخيه واكمل يسرد القصة قائلاً ان اولاف كان يعلم منذ البدء هوية ام الطفلين الحقيقية، لكنه لم يطلع احداً على ذلك سوى من تعهد بتربيتهما. وذلك لاقتناعه بأن الطفلين لن يلتفتا اليها بسبب العار الذي سببته الوالدة للعائلة.

هنا تدخل نوبل مقاطعاً:

- سمعت ان اولاف عاد عن رأيه واتصل بجدتنا ليعلمها بأن راندولف هو حفيدهم مهملاً اياي. وسبب ذلك اعتقاده ان راندولف يحمل من طباع ونبل والدته الكثير ليجعله لا يستحق حياة المخيمات القاسية.

اكمل راندولف مصححاً ادعاءات اخيه:

- لم يتصل اولاف بجدتي لانه لم يشأ ان يسبب اي الم للسيدة التي ربتني، وانا مسرور لأنه فعل ذلك. اعجبت امي بشهامة زوجها الذي يعلم المشاعر سببه فجرية رغبته اكثر من التنعم بالجاه والثروة، كما تذكرت كلماته لاولاف والتي قال فيها انه لكان فعل الشيء نفسه لو كان في موقعه.

اكمل الرجل:

- لو تركتها بالأمر لصارت حياتها فارغة. وانا احببتها فعلاً لأنها كانت امرأة طيبة علمتني القراءة والكتابة، زودتني بالكتب لأني ثقافة معقولة. انفقت المال الوفير اللازم لي العيش الكريم.

توقف راندولف قليلاً وزاد بكل جدية:

- لكن حياة الغجر وبيئتهم اثرتا في شخصيتي بالطبع فلم اكن ذلك الشاب المحترم واوقعتني طباعي الشرسة التي ورثتها عن والدي في مشاكل عديدة.

مررت لين ملاحظة ملطفة:

- ولكنك ورثت الطيبة والنبل عن والدتك.

تدخل نوبل هنا في الزوجين:

- كيف تعرفتما الى بعضكما وتزوجتما بهذه السرعة؟ انت لم تقابلي راندولف قبل لقائنا في المخيم لما تعطلت سيارتك، اليس كذلك؟

نظر راندولف الى زوجته مستغرباً:

- تعطلت سيارتك؟ عم يتكلم نوبل؟

اطلق نوبل ضحكة عالية وقال:

- الا تعلم اني كنت انا في المرة الأولى!

لم تكن لين راغبة في سماع نوبل يتكلم عن الموضوع ويضع القصة في قالبه الخاص فامرته بالسكوت:

- اصمت! دعني افهمك ما حدث يا راندولف.

- تفضلي لأن القصة اصبحت معقدة فأنت لم تذكري لي شيئاً عن معرفتك بنوبل.

اطلعت المرأة على كل ما حصل بتفاصيله من دون ان تهمل شيئاً. ولما انتهت كانت علامة الاجرام بادية في عيني راندولف الناظر الى اخيه بكره.

- ايها الشرير! علي ان احطمك بيدي لا ان اعرض عليك المساعدة!

كان من الطبيعي ان يتراجع راندولف عن مساعدة اخيه بعد اطلاعه على ما حدث وعلى تعرض شرف زوجته وسلامتها للخطر لولا تدخل ماتدا. لكن لين تدخلت وألحت على زوجها ان ينسى الموضوع ويساعد اخاه وعفا الله عما مضى!

وبالفعل رضخ رادولف لمشيئة زوجته واعرب عن استعداده لمعاونة بوريل ليحظى بحياة شريفة.

وعوض ان يظهر بوريل الامتنان لأخيه قال ساخراً:

ـ تكلفك لن تسامحني بالطبع.

ـ كيف اسامحك بعد ما حدث بيني وبين لين من اخطاء بسببك؟!

هز بوريل كتفيه علامة عدم الاكتراث قائلاً:

ـ لا يهمني ما حصل بينكما ولكن ما يحيرني هو عدم استطاعة زوجتك التفرقة بيني وبينك الا هذا الصباح!

ضحك بوريل واكمل:

ـ آه لو انها لم تتعرف الي وسمحت لي...

لم يدعه رادولف يكمل اذ قفز اليه وهم بضربه لولا تدخل لين في اللحظة الأخيرة وفصلها بين الرجلين.

ـ لا يا رادولف، لا تضربه لأنه يحتاج الى من يشفق عليه لا من يلومه! انظر وضعه التعس وقارنه بما حققت. ارجوك تفهم حالته وساعده!

ترقرقت الدموع في عينيها ورمقت زوجها بنظرة رقيقة:

ـ بوريل يبقى شقيقك الوحيد على رغم الطريق القذر بينكما. عليك ان تشركه في مصيرك، فاما ان تكونا ثريين واما ان تكونا فقيرين.

ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجه كل من الرجلين.

ـ اتستطيعين مسامحة اخي يا لين؟

قال رادولف ذلك بينما تمتم شقيقه:

ـ انها امرأة... مختلفة. لم أر في حياتي مثل هذه النعومة ومثل هذا التسامح. يا ليتني قابلت واحدة مثلها، لا مثل ماندا المفترسة...

طمأنته لين بصوتها الحنون:

ـ ستجد من يعتني بك ويحبك يا بوريل فلكل رجل امرأة تناسبه.

عنت لين ما تقول لأن بوريل ليس شريراً بطبيعته، بل هو عاش

في بيئة غير صالحة وترعرع في محيط يؤمن بالقوة وبالخروج على القانون وسيلة للتفوق والفوز.

تكلفت لين محاولة تخفيف وطأة التوتر السائد بين الشقيقين:

ـ اكمل القصة يا رادولف. كنت تخبرنا عن المرأة التي ربتك وكفلتك.

بعد موت مربية رادولف مورين، بعث اولاف برسالة الى جدتي رادولف يطلعهما على الوضع ويرجوهما تعهد رادولف وقبوله للعيش معهما في القصر. رحبت العجوزان الثريان بالفكرة لأنهما كانتا وحيدتين لا وريث لهما سوى قريب بعيد يعيش في اميركا.

قاطع بوريل شقيقه معترضاً:

ـ انت تهمل جزءاً مهماً من القصة وهو ان اولاف لم يكلف نفسه مشقة البحث عني.

ـ ربما لا تعرف يا بوريل ان اولاف سمع ان العربة التي كنت تعيش فيها مع الزوجين احترقت ومات جميع من فيها.

ـ كان عليه التأكد من ذلك لا تصديق الأخبار بسرعة، فأنا نجوت من الحريق ولم اصب الا ببعض الحروق البسيطة.

ازاح بوريل الشعرات السود واراهما اثر الجرح في مفرقه ثم تابع:

ـ لنفترض ان اولاف لم يعرف بوجودي حياً الا منذ سنتين، فلماذا انتظر اسابيع عدة ليطلعك على الأمر؟ ربما خشي من معرفتك ان لك اخاً شريراً...

ـ لا ادري ما الذي شغله عن اطلاعي على وجودك.

ـ لم يرد افساد حياة رجل محترم باقحام اخ شرير ومتشرد فيها. فأنت نشأت في احسن البيوت وارقاها بينما اضطررت لشق طريقي وحيداً منذ ان كنت في العاشرة. والله وحده يعلم كم واجهت من الصعوبات لاستطيع الصمود.

ارتجفت شفتا بوريل فظنت لين انه سيعود الى البكاء، سيما وانها هي لم تكن بحاجة الى تشجيع لتنهمر دموعها. حاول رادولف تبرير

موقفه وتصحيحه:

- دعوتك مرات ومرات لتأتي وتعيش معي في القصر حيث تبدأ بتحصيل العلم والثقافة وتعاشر من يجب ان تعاشرهم من الناس. رفضت ذلك مع انه من حقك التمتع بنصف الأموال.

انفعل رادولف بكل اسى:

- اعتبرت ان في الأمر تصدقاً ولكنك غفلت. لأني لم اعرض عليك الا حقك، وكن على ثقة اني ما زلت عند عرضي ومستعد لنصبح صديقين نتكاتف في مواجهة مشاق الحياة وقساوتها.

تساءلت لين عما يمكن ان يكون اكثر عدالة من هذا العرض، وحبها لزوجها يتضاعف لما تعرفه فيه من نبل وشهامة. نظرت اليه مبتسمة قرة الابتسامة بأنعم منها وقلبها يخفق طرباً بالحب الكبير.

فكر بوريل ملياً بالأمر واعلن:

- رفضت دعواتك السابقة لأني كنت مقتنعاً اني اكبر منك سناً، واني تعذبت وحرمت من المال والثروة. اردت واريد ان اصبح رجلاً محترماً ولكن تغيري صعب وقد بلغت الثلاثين. كنت مخطئاً يا رادولف لأنك تركت حياة الغجر وانت بعد فتى يافع، اما ان تبدأ عملية تحول تنقلك من ضفة الى ضفة وانت في الثلاثين فرابع المستحيلات. تفهم رادولف رأي اخيه معترفاً انه، على رغم كونه في السادسة عشرة، وجد صعوبة قصوى في التخلص من عاداته الغجرية والتأقلم في نمط الحياة الارستقراطية المعقدة.

- لا مجال للمقارنة يا لين بين تعقيدات وشكليات حياة القصور وحرية وفلتان حياة الغجر. ولا انكر اني عقدت العزم مراراً على الفرار والعودة الى المخيم لأعيش بين قومي واصحابي.

قدرت لين لما سمعت ذلك مدى شجاعة زوجها وقوة ارادته اللذين جعلاه يصمد ويبقى في القصر مع جدين محترمين متعجرفين، ولا عجب في كونهم كذلك، شأن كل اصحاب الثروات الطائلة والألقاب النبيلة. لا ريب في ان رادولف بذل جهوداً جبارة ليعتاد على

متطلبات حياة القصور ويتخلى عن اللامبالاة التي طبع عليها في حياته الغجرية.

علق بوريل على كلام اخيه:

- لو هربت من القصر لربما كنت انا مكانك الآن.

- ربما.

قطبت لين حاجبيها غير قادرة على تصور بوريل المتشرد في لباس ارستقراطي عريق، فهو كان سيفشل حتماً في اعتياد حياة القصور ولا شك ان بوريل مدرك هذه الحقيقة ويتصرف، وان ليس ظاهرياً، على اساسها. اعاد رادولف سؤاله:

- ما اريد ان استوضحه منك يا بوريل هو هل تقبل بعرضي طارداً من ذهنك فكرة التصدق والمنة؟

- العرض هو السكن في القصر؟

- اعتقد انا قلت ان هذا مستحيل لأنك ارعبت زوجتي مرتين وهي ستنزعج من وجودك فيه.

- هذا يعني انك غير مؤمن بامكانية عودتي الى الطريق الصواب.

أضاف بوريل قبل ان يتمكن اخوه من التعليق:

- لن استطيع يا رادولف معرفة سبب انشغالك بي وبحثك الدائم عني. جبت مخيمات البلاد كلها مرتدياً ثياباً لا تليق بمقامك حتى لا تشعر الغجر بأي نقص، وشاغلاً عربات قذرة لا تصلح لأن تكون مكاناً لرمي النفايات في قصرك... والله لو كنت مكانك لتخليت عن البحث مرسلاً اياك الى الجحيم!

ابتسم رادولف بابتسامة خفيفة وبوريل ينظر اليه مقارناً بين طريقة حياة رادولف وتشرده الدائم. ثم وضع الثاني رأسه بين يديه وقال يائساً:

- العجب لماذا اسألك اولاف بوجودي مع ان سلوكي كان يسبب له القرف! انا لص، محتال، قاطع طريق... حتى الغجر لا يرضون بوجودي بينهم... لا حل لي الا بالاختفاء عن انظار الناس!

لكن صار بوريل بعد اعترافه هذا مختلفاً عن مظهر الرجل الشرير. هو يكره نفسه لأنه انساق وراء غرائزه وميوله العدائية. ولكنه تسلح بالشجاعة وانهار معترفاً باخطائه، من دون ان يجد حلاً لها سوى التواري.

نظرت ليز الى زوجها فرأته يفكر بعمق عن مخرج لمشكلة بوريل، وارادت ان تتكلم لكن زوجها سبقها:

- لا احد يكرهك يا بوريل فأنت عدو نفسك الوحيد. لماذا لا تطوي صفحة الماضي وتبدأ حياة جديدة؟ اخبرني اولاف مرة انك بحاجة الى رأسمال صغير لتهاجر الى استراليا وتؤسس مصنعاً للخشب مع شريك، فهل ما يزال المشروع قائماً؟

- لا اعلم. . فالرجل سافر الى استراليا وسمعت انه . . يجد صعوبة في تسيير العمل بسبب ضائقة مالية.

- المال ليس مشكلة فمتى قررت العمل امدك بما يلزم.

- انا مصمم على ذلك ومستعد للسفر الى استراليا يا رادولف.

تنفس رادولف الصعداء ونظر الى زوجته مبتسماً لأن نهاية الأزمة قد اقتربت.

- وهل تقبل بنصف اموال التركة؟

- ولكن المال موصى به لك؟

- اموال عائلة دوفي يا بوريل حق مشترك علينا تقاسمه بالتساوي.

- لا اجرؤ على اخذ نصف الأموال في الوقت الحاضر، لأني لا اجد نفسي قادراً على ادارتها. اعطني ما يلزم لانشاء المصنع واحفظ الباقي، فان احتجت الى شيء، آتي اليك.

- كما تريد يا بوريل. سأعمل على مدك باللازم في اقرب وقت.

قاطعه رنين الهاتف فهرع ورفع السماعة خائفاً من ان يكون في الأمر سوء، لكنه ما لبث ان انفرجت اساريره وابلغ زوجته وشقيقه:

- مالفا بحالة جيدة ولن تتقدم بشكوى الى النيابة.

اكتفى بوريل بالقول:

- يسرني سماع ذلك.

- تعلم يا بوريل ان كوتيل اوقع نفسه في مشاكل عديدة وهو خائف ويريد السفر ليسوي اوضاعه ويبني مستقبله. ما رأيك باصطحابه الى استراليا فأنا وعدته بالمساعدة؟

نظر رادولف الى زوجته وقال ضاحكاً:

- لا اظن ان كوتيل كان ينوي مساعدتك على الفرار عندما اعترف لي بكل شيء. الست مسرورة يا عزيزتي لأنه لم يساعدك؟

- نحن لم نعد الى المخيم لأعلم حقيقة نواياه.

- صحيح يا ليز ولكنه كان موجوداً في احد المخيمات التي مررنا بها.

استوضح بوريل شقيقه:

- ماذا عن كوتيل والغجر؟

لم يجب رادولف بل وعد:

- سنطلعك على ما حصل في المستقبل عندما تأتي لزيارتنا.

واكد بوريل مشككاً في قرارة نفسه انه متى غادر هذا المكان لن يعود ابداً.

- لنعد الى موضوع كوتيل يا بوريل. انه شاب ذكي ويستحق ان يتمتع باكثر مما تقدمه حياة الغجر. واعتقد بانه سيكون لك عوناً كبيراً في اعمالك.

- لا مانع عندي في اصطحابه.

- اتمنى لك وله كل التوفيق وآمل بأن تتوصل الى تحقيق طموحاتك بالعزم وقوة الارادة.

وقف بوريل على قدمين مرتجفتين واخذ يبحث عن الكلمات المناسبة ليعتذر عما حصل، لكن شقيقه لم يرد احراجه فسارع الى القول:

- يجب ان ترتاح الآن وتتناول حبوباً مزيلة للصداع.
- فكرة حسنة. أريد ان أسألك شيئاً أخيراً يا رادولف، هل تهتم بالترتيبات القانونية لسفري؟
- لا تشغل فكرك بهذه الأمور واتكل علي. اما الآن فادخلي الى غرفة النوم وخذي قسطاً من الراحة.
بعد عشر دقائق جلس الزوجان وحيدين على الشرفة يتأملان زرقة البحر الفاتنة.
- اخيراً يا حبيبتي الغالية لم يعد هنالك ما يعكر صفو حياتنا، اليس كذلك؟
- اعتقد ان مشكلة بوريل انتهت.
- اشكر الله على ذلك.
اخذ يداعب شعرها بحنان واضاف:
- كنت شهمة جداً تجاهه يا حلوتي على رغم ما فعله معك. لقد كم سبب الكلام على اللقاء الاول لبساً وغموضاً، ولهذا كنت استغرب موقفك مني.
- لم افهمت مرة عن تعطل سيارتي.
- في اي حال اصبحت هذه الأمور جزءاً من الماضي بالنسبة الي.
- وهو كذلك.
- كنا ضحية ظروف معاكسة ولكننا خرجنا سالمين.
فكر رادولف قليلاً قبل ان يزيد:
- اتؤمنين بالحب من اول نظرة؟
- ربما.
- منذ ان رأيتك في الغابة علمت انك الفتاة التي ابحث عنها. غرقت في غرامك حتى اذني وتعذبت كثيراً لاحتقارك اياي وتصرفك.
- الم تتساءل يوماً لماذا ضربتك بالسوط؟ اظننت اني فعلت ذلك بدون سبب؟

- حدث كل شيء بسرعة لم تدع لي مجالاً للتفكير وانجررنا بعد ذلك وراء المواقف الانفعالية والرغبة بالانتقام. اعترف لك يا لوسي اني اعاني من مركب نقص كوني غجرياً، فأنا اخاف من ان تكون بعض تصرفاتي نابعة من ماضي ومن انعزالي الاجتماعي. وانت زدت الطين بلة عندما صفعتني غجرياً متشرداً حقيراً.
- انت محق يا حبيبي، فمثل ما في الامر اني كنت خائفة من احتقارك لي دون ان يخطر لي ان الشخصين مختلفان. لا تتصور كم كانت المفاجأة كبيرة عندما رأيتك في الغابة فظننت انك لحقت بي من المخيم حيث تعطلت السيارة حتى تكمل ما بدأته هناك.
- من مصادفات الصدف ان نلتقي بوريل ثم بي في الغابة، ولكن القدر لعب لعبته بخبث.
رمقته بنظرة حنان ووضعت يدها على الجرح ثم همست:
- اتعتقد ان اثره سيزول؟
- بالطبع سيزول.
- ان لم يحصل ذلك لن اغفر لنفسي ابداً.
ضحك رادولف وقبلها بحنان على جبينها:
- سنذهب غداً الى بيتنا حيث نبدأ برسم طريق حياتنا الصحيح.
- فكرة رائعة يا حبيبي.
كانت فرحة لوسي كبيرة الى درجة لا توصف، فالأمور تسارعت بشكل مثير في الاسابيع الاخيرة، ووجدت نفسها في عالم آخر لم تكن تعلم انها ستصبح جزءاً منه لما كانت تمضي اوقاتها وراء مكتبها وبين جدران شقتها الموحشة.
- اصحيح انك امضيت سنتين في البحث عن شقيقك؟
- نعم، ولكن ذلك لم يمنعني من الاهتمام بادارة اعمالي. تنقلت بين المخيمات بسيارتي. الا عندما التقيتك فقد كنت ذاهباً الى المخيم على الحصان لانه قريب نسبياً من القصر.
- ولماذا تظاهرت بكونك غجرياً فظاً؟

- ألن تنتهي من الاستجواب؟ حسناً، لأنك جرحت شعوري، وأردت أن أرد لك الكيل كيلين. كنت، في مرات عديدة، أعترف لك بالحقيقة ولكن عنادي منعني.

دفنت لين رأسها في صدره وهمست:

- بذلك تعلمت أن أحبك لذاتك دون النظر إلى أمثالك، وأنا سعيدة لأنك تعرف أني أحبك من قبل اطلاعي على هويتك الحقيقية.

- أظن أنك اكتشفت حقيقة مشاعري نحوك يوم كنا في السيارة.

- هذا صحيح يا رادولف. وإن حاولت مقاومة هذا الحب لأن الحياة الغجرية لا يمكن أن تناسبني.

- ولكن مقاومتك كانت فاشلة!

- أعترف بذلك وأني كنت مستعدة لمتابعة الرحلة معك حتى النهاية.

- ألا تريدين الاطلاع على الخطة التي تحدثنا عنها؟

- بالطبع.

- لم أكن أستطيع تصور نفسي أعيش بدونك يا لين. ففكرت أن ابتاع لك بيتاً خاصاً تعيشين فيه بحرية، مقابل سماحك لي بزيارتك مرتين يومياً. وبذلك تتخلين عن فكرة الفرار.

- أتريد معرفة رأيي الحقيقي في خطتك يا رادولف؟

- نعم.

- إنها أغبى خطة رأيتها في حياتي!

- ولماذا؟

- لأنك تعلم أنك لن تستطيع التقيد بها وأنك ستجبرني بعد مدة على . . . على . . .

احمر وجهها خجلاً فيما رادولف يطلق ضحكة [illegible] تعبر عن الارتياح والسعادة.

- بالله عليك يا لين أجيبي بصراحة: هل كنت ستقبلين بهذه

الخطة؟

ترددت المرأة في الاجابة وعيناها هاربتان من نظراته الطاغية.

- كنت . . . كنت سأنهار وأقوم بإغرائك لتطرحها جانباً!

ضحك الزوجان راضيين بالسعادة التي ظناها بعيدة عنهما حتى وجداها بعد عذاب وشقاء. طوق رادولف خصر زوجته وظلا يتنزهان في الحديقة حيث بدت الأزهار أكثر تفتحاً احتفاء بالحب الكبير.

- سنأتي إلى هذا المنزل مرتين أو ثلاثاً في السنة لقضاء العطلة.

- إن لهذا المكان في نفسي أثراً حلواً يا حبيبي لأننا فيه وجدنا كنز السعادة الثمين.

لاحظ الغجري انزعاجاً على وجه زوجته فسألها:

- ما بك؟

- هل يعتبر زواجنا شرعياً؟

- يعتبر كذلك طبقاً لشريعة الغجر.

- وهل تعترف به السلطات الإيرلندية؟

- لا أظن ولكننا سنصحح الوضع حالما نصل إلى البيت.

تذكرت لين كل ما حدث منذ اختطافها حتى الساعة. كيف رفضت على الزواج وعلى كتابة الرسائل إلى اصدقائها . . . كيف بقيت سجينة العربة يترصدها الغجر . . . وتذكرت خصوصاً يوم لسعها رادولف صفعاً . . . صارت هذه الأحداث ذكريات يمحوها حب رادولف والأمل الكبير المشرق بحياة سعيدة.

- هل ستجيبين على رسائل أصدقائك؟ فبعضها وصل إلى القصر رداً على رسائلك.

- بكل تأكيد.

- وماذا ستقولين فيها؟

- سأقول إني متزوجة من أروع وأطيب رجل على سطح الأرض.

- أتعنين حقاً ما تقولين؟

اكتفت ليز بالنظر اليه والحب يملأ عينيها، فعلم الغجري انها ستكون في احضانه الى الأبد.

أمنية تحققت ...

بعد ورود آلاف الرسائل
بعد الاستماع إلى مئات المكالمات
بعد التأكد من رغبة القراء والقارئات
كان لابد لي أن أستجيب

وقريباً
تصدر سلسلة رومنسية جديدة
بعنوان

قلوب عبير

قلب في كل مكان
مكان في كل قلب

أتمنى لكم مطالعة ممتعة ورحلة هنيئة
على متن طائرة الحب والخيال

الناشرة

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No.133

قريباً يا ملاكي

الحب، هذه العاطفة المذهلة التي لا يمكن ان يسبر اغوارها احد، يقطن كل زاوية ومنعطف من حياتنا، يتربص بنا في الغابة او الصحراء، في ثنايا الليل المثقلة بالأسرار او صفحة النهار المشرقة كضحكة طفل. نكتشفه دائماً حتى ونحن مشغولون بأشياء أخرى، كالرحلة التي كانت تقوم بها لين الحسناء للهرب من رتابة حياتها اليومية. ذهبت لتمضي عطلتها في ايرلندا وتنسى عالم العمل والضجيج في ربوعها الخضراء، ولكنها لم تتصور ان رحلتها هذه ستقلب حياتها رأساً على عقب.

استطاعت ان تفلت في المرة الأولى من الغجري المتشرد الذي التقته في مخيم للغجر على الطريق، لكنه تمكن منها في المرة الثانية وكان اللقاء هذه المرة مليئاً بالأخطار... سجنها في عربة غجرية بعدما ارغمها على الزواج. ومن بين قضبان عذابها انبلج شعور بالانسحار لم تستطع مقاومته.

هل هذا هو الحب؟

لبنان	١٠٠٠ ل.ل	الكويت	١ د	اليمن	٩ ر	السودان	[illegible]
سورية	١٠٠ ل.س	الامارات	١٢ د	تونس	١٥٠٠ م	U.K.	£1
الاردن	٨٠٠ ف	البحرين	١٥٠٠ ف	ليبيا	١ د	France	F 10
العراق	٨٠٠ ف	قطر	١٢ ر	المغرب	٩ د	Greece	Drs 200
السعودية	١٢ ر	عمان	١٥٠٠ بيزة	مصر	١٠٠٠ ق	Cyprus	P 1500